جان إشنوز

عَدْو

رواية

12.5.2017
@ketab_n
Follow Me

ترجمها عن الفرنسيّة

أبو بكر العيادي

جان إشنوز

عَدُو

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

أبو بكر العيادي

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر
PQ2665.C5 E6712 2016
Echenoz, Jean, 1947-
[Courir]
عَدْو : رواية / تأليف جان إشنوز ؛ ترجمة أبو بكر العيادي ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
167 ص. ؛ 11 × 18 سم.
ترجمة كتاب : Courir
تدمك : 1–962–13–9948–978
1ـ القصص الفرنسية– القرن 21.
أ– عيادي، أبو بكر. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jean Echenoz
Courir
© 2008 by Les Editions de Minuit
صورة الغلاف:
العدّاء التشيكوسلوفاكيّ إميل زاتوبيك سنة 1951

كلمة KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة. هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

عام القراءة 2016

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
Twitter: @ketab_n

عَدُو

Twitter: @ketab_n

ديباجة

هذه واحدة من ثلاث روايات للكاتب الفرنسيّ جان إشنوز Jean Echenoz نُصدرها متزامنةً في هذه السّلسلة، وقد شاء لها كاتبها أن تشكّل ثلاثة عناصر متضافرة ومستقلّة في الأوان ذاته من مجموعة موحّدة. في «رافيل» *Ravel* (2006) عرضَ لسيرة المؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ الشّهير موريس رافيل، وفي «عدْو» *Courir* (2008) أعاد بناء مسيرة العدّاء التشيكي إميل زاتوبيك، وفي «بُروق» *Des éclairs* (2010) تصدّى للتجربة العجيبة لمخترع التيّار الكهربائيّ المتناوب وجملة أجهزة وابتكارات أخرى، الأمريكيّ الصربيّ الأصل نيكولا تسْلا.

الروايات الثلاث تتقدّم كلّ منها باعتبارها «قصّة حياة»، ولكن «دون تقيُّدات سِيَرِيّة أو بيوغرافيّة»[1].

(1) نستميح القارئ العذر في الإشارة إلى كوننا نتوقّف عند الأواصر الجامعة بين هذه الأعمال الثلاثة في تقديمنا لرواية «بُروق» ضمن هذه السلسلة.

Twitter: @ketab_n

فنّانٌ ورياضيّ وعالم كما قلنا. وإشنوز نفسه درس العِلم (الكيمياء فعلم الاَجتماع) ومارس الموسيقى هاوياً، وهو أيضاً هاوي سباحة يفتخر بقدراته فيها. هذا كلّه، إلى موهبته روائيّاً، ساعده على تبنّي هذه السّيَر الثلاث وإعادة ابتكارها بأكثر ما يمكن من الصدقيّة والعمق. في «رافيل» تجتذبنا لغة الموسيقى وخفايا الفنّ وفرادة كلّ عملٍ في ذاته، وحضور شخص رافيل نفسه في أعماله، وارتسام ظلّ الفنّان على حقبة بكاملها، وحضور الموسيقى في جغرافية العالَم الإبداعية، وسُوق الموسيقى ومزايداتها وعالم العروض الفنيّة والصّالات. وفي «بروق» تختطفنا لغة الكهرباء وتموّجات الضّوء، وتناقض العبقريّة غير النفعيّة ومنطق رأس المال الكليّ. وفي «عدْو» نبحر في عوالم السّباقات والماراثونات، وأسرار ميادين ألعاب القوى، وخبايا شخصيّة العدّاء، وعلاقته بالجمهور، وكيمياء الجسد واصطدام البطولة الفردية بمأساة الجماعة، وفظاعة الهيمنة والحرب الباردة، وجغرافية المَلاعب وأجواء المباريات، وهذا المزيج الذي يميّزها من احتفاليّة وتوتّر، من مهرجانيّة وانفعال.

Twitter: @ketab_n

إميل زاتوبيك (1922–2000) كما يريناه إشنوز في هذا الكتاب رياضيّ يغيّر نواميس الرياضة، «عصاميّ هوميروسيّ» كما نعته الروائيّ الفرنسيّ باتريك غرانفيل في عرضه النقديّ لهذا الكتاب، عدّاء مسافات طويلة يتدرّب على طريقته الخاصّة جدّاً، وآلة تبتكر التشنّجات والتسريعات القصوى وتحصد فوزاً تلو الآخر على غير انتظار. كائن معذَّب بموهبته، مفاجئ وغير متوقّع أبداً. ركضَ ما يعادل ثلاث دورات حول الكرة الأرضيّة في ملاعب بلدته الصغيرة وشوارعها، ووقف بكلّ شموخ جسده ووعيه بغرابات هذا الجسد وإمكاناته الخارقة لغزاً مطروحاً على الرياضة وعلى السياسة في آنٍ معاً. حمله شعبه إلى الأعالي حيثما أراد السّاسة أن يحطّوا من قدره لقوّة الرفض فيه. فبقي مثاله حيّاً حيثما أرادوا إخماد شرارته الخلاقة.

صداقة وحبّ. تضامنه مع زوجته دانا، لاعبة القوى مثله، وصوَره الشهيرة برفقة العدّاء الفرنسيّ، الجزائريّ الأصل، ألان (علي) ميمون، تُرينا حدّة الصداقة في قلب المنافسة التي جمعتهما وأبعد منها (انظر الصّورتين أدناه

Twitter: @ketab_n

تجمعانهما في نهاية سباقَين).

تبدأ رواية «عدْو» بالغزو النازيّ لمورافيا (شرقيّ الجمهوريّة التشيكيّة حاليّاً) في 1939، وتنتهي بالاجتياح السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا في 1968، وكان السّوفييت قد دخلوها من قبلُ لطرد الألمان منها في 1945. في مواجهة العنف النازيّ، أصرّ إميل الشابّ على رفع اسم بلاده عالياً في أرجاء العالَم. وأمام هيمنة الحليف السوفييتي، أعلن تأييده لربيع براغ وإصلاحات دوبشيك. مناخٌ سياسيّ كامل يرسمه إشنوز بلمساتٍ خفيفة من السّخرية والإدانة، منطلِقاً إلى رؤية حقبة بكاملها من منظور رجلٍ تتلخّص حياته في بضع مسارعاتٍ فذّة قام بها على مضمار الرّكض.

إميل «يركض ويداه في جيبه» كما كتب باتريك غرانفيل أيضاً عن بطل إشنوز هذا. وبالفعل فهذه الرواية

Twitter: @ketab_n

إنّما يتمثّل مسعاها في وضع هذا البورتريت الفيزيقيّ والمعنويّ لرياضيّ لم يكن ليتدرّب ولا ليركض كسائر الرياضيّين. رياضيّ سلبيّ كما نقول «بطل سلبيّ»، ولكنّه في سلبيّته هذه يبلغ ذروة الفاعليّة، فيفوز حتّى عندما لا يريد ذلك، وينهض من رماده كالعنقاء عندما يحسب خصومه وأنصاره أنّه على قاب قوسين أو أدنى من إدراك خاتمة شوطه كرياضيّ كبير. جسمٌ مخلَّع، وإهابٌ منفصم، وخطوٌ مرتدّ على ذاته ثمّ مندفعٌ حتّى أقصى الفضاء، في مسيرة لا يمكن توقّعها ولا إحالتها إلى ضابط منهجيّ. «ركضٌ أليم مثل ركضٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة يسارع نحو الخروج» كما يعبّر غرانفيل أيضاً. كان يتمرّن كدابّة لا تتعب، ويمارس على جسمه الأخرق الحركات هيمنة عجيبة وحده يمتلك سرَّها أو نابضها العميق. كيان مختزَل إلى تكشيرة شهيرة لوجهٍ كازٍّ على أسنانه تعبيراً عن ألم الجسم الرّاكض، وتعلوه في اللّحظة ذاتها ابتسامة مشرقة كابتسامة المغتبطين والمطوَّبين، ابتسامة روحٍ ساعية لاقتطاف ظفرها الأكيد.

في ملعب برلين في 1947 كان هو وحده فريق مورافيا

Twitter: @ketab_n

بكاملها، أمّة يمثّلها «واحد لاغير» كما فتئ هو يردّد أمام حامل العلَم المستغرب من حالته. حصد ثلاث ميداليات ذهبية في هلسنكي في 1952، وساد بلا منازع لسنوات عديدة على سباقات الخمسة آلاف متر والعشرة آلاف متر والماراثون. طالما كان منخرطاً في التيّار كانوا يسمّونه «أسرع بروليتاريّ في العالَم»، ثمّ لمّا أعلن تأييده لربيع براغ أرسلوه عاملاً في مناجم اليورانيوم، ثمّ عيّنوه مستخدَماً في تنظيف الشوارع، حيث كان رفاقه في العمل يرفضون السَماح له بحمل المهملات والأوساخ، والجمهور يصفّق له من وراء نوافذ البيوت، فيهرول وراء شاحنة التنظيف كما لو كان في مضمار العدْو، محوّلاً العمل البروليتاريّ الفعليّ إلى صداقة واحتفال.

تأتينا كتابة إشنوز منقّاة من كلّ انفعالٍ نافلٍ، ومن كلّ تفخيم. هي الحياد الذي يبلّر المفارقة بمقاربة تكاد تكون علميّة، مقاربة سخّر من أجلها تمكّناً أسلوبيّاً ومعجميّاً كبيراً ليرينا تجاور أغرب الطباقات والانسجام التبايُنيّ لأقوى التناقضات، جاعلاً الفرنسية تعرب عن قدرة كبيرة على استقبال تصادمات غير مألوفة وتوازنات

Twitter: @ketab_n

محقَّقة في اللّحظة الأخيرة بوجه التهديد المتواتر بالانهيار والتخلّع، على شاكلة عدْو إميل نفسه.

لوصفِ كلّ مباراة، وكما أشارت إليه مين تران هوِيْ، يوظّف إشنوز شعريّة كاملة تذهب من وصف المكان أو المضمار إلى تحليل لحظة الانطلاق، فاختبار الرّكض وامتحان الترقّب ومفاجأة الوصول، وأسلوب الإسراع النهائيّ وتلقّيه من قبل الجمهور، وطريقة إميل في معايرة منافسيه أو رَوزهم، وتخلّيه عنهم مع اقترابه من خطّ الوصول، بالرغم من أنّ البقاء معهم كان يستهويه أكثر، فتراه يشكرهم لأنّهم رافقوه بكلّ هذه الدّماثة على امتداد شوط طويل! وإذا بمسار السباق يمتزج بمسار الحكاية، ومعجزة إميل في العدْو تقترن بعجيبة إشنوز الأسلوبية، هنا وهناك إبطاءٌ محسوب وتسارُع منول في ذروة الجهد؛ مدى خطوات العدّاء ومدى قفزات العبارة هما مسار واحد في اثنين، وسباق متلاحم ومزدوج. وأمام تقنيات إيميل الجديدة في التدرّب والركض والفوز تنهض تقنيات إشنوز الجديدة في تطويع المفاجئ وردّ الفوضى الظاهرية إلى نظام خفيّ. تبادلات فذّة يصير فيها مضمارُ العدْو

Twitter: @ketab_n

ميدانَ كتابةٍ، ومسرحُ السّردِ ميدانَ جرْيٍ من نمط جديد.

لقّبوا إيميل بـ «القاطرة»، فهو وعي عمليّ بالجسد وقدراته وتهمّساته، نكون فيه بأقرب ما يمكن من تصوّرات جيل دولوز للحركيّة وآلات الحرب، دولوز الذي يجهر إشنوز بقربه منه. كتابة متسلسلة، مستأنفة، كما في حالة موديانو، يعيد الكاتب فيها الاشتغال على مضامينه الكبرى من كتاب إلى آخر. فترى مقاطع عن موريس رافيل أو نيكولا تسلا كاملة الانطباق على إميل زاتوبيك لفرط ما ينطلق الثلاثة- ومعهم إشنوز نفسه- من تصوّر طاقويّ وكثافيّ واحتداميّ للوجود، ومن مسعى أساسيّ يتمثّل في تحويل عثرات كيانٍ وانبثاق قواه الخفيّة إلى تركيبة عجيبة. فالمهمّ لا يكمن في طرد مَواطن الضعف أو التنكّر لمظاهر الهشاشة بل في إدراجها في ما يصنع قوّة الشخص وكثافته الفعليّة، توقيعه، أثره الخاصّ، دمغته، فرادته.

كتابة ذات راهنيّة أكيدة، كما تشير إليه مين تران هوِيْ أيضاً، فتغليب الديماغوجيّة السياسيّة على حاجات الإبداع، وتسخير العبقرية لمتطلّبات الدعاوة ومنطق رأس المال ما تزال تعمل بهما الصّين وأمريكا وسواهما، ما

Twitter: @ketab_n

يجعل من إميل الأنموذج البليغ لكلّ مسيرة مبدعة تسبح ضدّ التيّار. هذا كلّه يمنح هذه الرّواية أو هذه الرّوايات الثلاث حضوراً وراهنيّة، ولكنّها ليست نصوصاً تاريخية ولا سياسيّة ولا حتّى احتجاجيّة بل أدب شهادةٍ يُنعش وصف الحادثة بمنطق الشّعر، ولا ينسى لحظة واحدة أنّنا قبل أيّ شيء آخر أمام مغامرة في السّرد ومحاولة لتوسيع حدود فنّ الحكاية أو إمكاناته.

هي في النهاية مسيرة مفارِقة، مسيرة رجل لم يبحث عن المجد ولكنّه ألفى نفسه مقذوفاً إليه كأنّما على مضضٍ، وبفعل الوفاء لنسقه الشخصيّ وحقيقته الذاتيّة. رجل قبلَ بتهميشه وزواله فانتهى به الأمر إلى أن سكنَ التاريخ وصار من أكثر أعلام فترته احتداماً وعصفاً.

هي أخيراً ثلاثة أمثلة أنموذجيّة على روايات إشنوز الجغرافية. رحلات بلا إكزوتيكا أو غرائبيّة تتوخّى الإدهاش من أجل الإدهاش: مع رافيل نبحر عبر فرنسا وأمريكا الشمالية وعالم الحفلات والصّالات وطقوس الكونشيرتات. ومع إميل نجتاز العالم الاشتراكيّ وسواه على هوى المباريات، مخترقين معه مضامير العدْو

Twitter: @ketab_n

ومنطق السرعة والمفاجآت الطاغية واللّامنطق الذي صار منطقاً وشاكلةَ حضورٍ وعمل. ومع نيكولا تسلا نخترق الولايات المتّحدة الأمريكيّة ورأسماليّتها الصاعدة وملحمة الكهرباء يخطّها رجل امتلك كلّ سمات العبقرية ورفض أن يحوز الشيء الأوحد الذي يذود به عن نفسه: منطق الحساب أو كيمياء الرّبح والفائدة.

المُراجِع

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

ينوّه المؤلّف بأنّه استخدم في هذا الكتاب مفردات وعبارات عديدة لصحافيّي جريدة «ليكيب» *L'Équipe* الرياضيّة بين 1946 و1957.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

دخل الألمان مورافيا. جاؤوها على الخيول والدرّاجات الناريّة والسيّارات والشاحنات، وجاؤوها أيضاً على عربات الخيل المكشوفة، تتبعهم فرق مشاة وأرتال للتموين، ثمّ بعض مركبات نصف مجنزرة صغيرة الحجم، ولا شيء عدا ذلك. لم يحن الوقت بعد لرؤية دبّابات بانتسَر الضخمة من نوع تيغر وبانتر بقيادة جنود مدرّعات في زيّ أسود، سيكون لوناً مناسباً جدّاً لستْر بقع الزيت. بعض طائرات استطلاع ميسّرشميت ذات محرّك وحيد، من نوع تايفون، تقوم بتغطية هذه العملية، ولكن بما أنّها كانت مكلّفة بالتأكد من علٍ من أنّ كلّ شيء يسير بهدوء، فهي ليست مسلّحة. لم يكن ذلك سوى اجتياح صغير خاطف بلطف، احتلال بسيط دون خلق مشاكل، وليس الحرب

Twitter: @ketab_n

بحصر المعنى التي لم تندلع بعد. لا شيء سوى أنّ الألمان وصلوا واستقرّوا، ذلك كلّ ما في الأمر.

تتنقّل القيادة العليا للعملية في سيّارات هورش 901 أو مرسيدس 170 لا تسمح نوافذها الخلفية، المسدودة بستائر رمادية مغضّنة تغضيناً دقيقاً، بتبيّن الجنرالات. عربات الخيل المكشوفة، الأكثر عرضة، يشغلها ضبّاط أقلُّ رتبة بمعاطف طويلة، وكسكيتات عالية وصلبان من الحديد مضغوطة تحت الذقون. الخيول يمتطيها ضبّاط آخرون أو هي تجرّ مطابخ الميدان. الشاحنات التي تحمل الفرَق تنتمي إلى موديل أوبل بليتز والدراجات النارية، وهي عربات جانبية ثقيلة من نوع تسونداب، يقودها حرس بخُوَذ ذات قلادات معدنية. كلّ معدّات النقل تلك مزدانة براية الحرب، شعلة حمراء بقرص أبيض يحوي ذلك الصليبَ الأسود المخصوص الذي لم يعد يحتاج إلى تقديم، والذي يحمله بعض الضبّاط أيضاً في شارات سواعدهم.

عندما قدِم هؤلاء الجند إلى إقليم السّوديت قبل ستّة أشهر، استقبلتهم الجالية الألمانية في المنطقة بشيء من

Twitter: @ketab_n

الترحيب. أمّا الآن، فإذا تجاوزنا حدود بوهيميا وموراڤيا، كان الاستقبال أكثر برودًا تحت السماء الرصاصية الواطئة. في براغ دخلوا وسط سكونٍ كسكونِ الحجر، وفي مقاطعة موراڤيا لم يتجمّع الناس أيضاً على حافة الطرقات. والذين جَرُؤوا على ذلك كانوا ينظرون إلى الموكب في فضولٍ هو أقلّ من الاحتراز أو في نفور صريح، ولكنّ شيئاً ما كان يُنْبِئهم بأنّه لا مجال للمزْح ولا وقت آنئذٍ لإبدائه.

لم يلتحق إميل بأولئك المتفرّجين لأنّ له مشاغل كثيرة. أوّلاً، بما أنّه هجر المدرسة منذ ثلاث سنوات لأنّ والديه لم يكونا يملكان وسائل بقائه فيها، فقد مارسَ في المصنع حرفة متدرّب لا نمزح معها هي أيضاً. ثمّ، عندما يغادر المصنع يواصل دروساً في الكيمياء بنيّة أن يصبح في يوم ما شيئاً آخر غير متدرّب. وأخيراً، عندما يجد الوقت للعودة إلى بيته، يساعد أباه في حديقة لم تُجعل للزينة، حيث ينبغي إنبات ما يأكلون، وهي نقطة لا يمكن المزح معها أيضاً. إميل في السابعة عشرة، وهو ولد فارع القامة أشقر ذو وجه مثلّث، وسيم نوعاً ما، وهادئ نوعاً ما، ومبتسم طول الوقت، فتُرى للعيان عندئذ أسنانُه الكبيرة. عيناه

Twitter: @ketab_n

صافيتان وصوته رفيع، وبشرته البيضاء من تلك التي تهاب الشمس. ولكنّ الشمس اليوم لا أثر لها.

Twitter: @ketab_n

2

عندما دخل الألمان مورافيا، استوطنوها واحتلّوا أوسترافا، مدينة الفحم والفولاذ التي ولد إميل بجوارها، فيها تزدهر أهمّ الصناعات، فشركتا تاترا وباتا تقترح كلتاهما وسيلة للسّير قُدماً: السيّارة أو الحذاء. تاترا تبتكر سيّارات جميلة باهظة الثمن، وباتا تنتج أحذية ليست رديئة ولا مكلّفة. ندخل هذه أو تلك حينما نبحث عن عمل. ألفى إميل نفسه في مصنع باتا بزلين، على مسافة مائة كيلومتر من أوسترافا.

كان تلميذاً داخليّاً في المدرسة المهنية وعاملاً بسيطاً في قسم المطّاط الذي يفضّل الجميع تجنّبه لروائحه الكريهة. تنتج الورشة التي عُيّن بها في البداية يوميّاً ألفين ومائتي

Twitter: @ketab_n

زوج من أحذية تنس[1] ذات نعالٍ من مطّاط «الكريب»، وكان أوّل عمل عُهد به إليه أن يسوّي تلك النعال باستعمال عجلة مسنّنة. ولكنّ الوتيرة كانت رهيبة، والجوّ خانقاً، والنسق بالغَ السرعة، وكلّ إخلال يعاقَب عليه بغرامة ماليّة، وأبسط تأخير يُخصَم من أجره الهزيل أصلاً، فكان أن أخفق في وقت وجيز. فتمّ تغييره من مركزه لتعيينه في إعداد القوالب، وهو عمل وإن لم يكن أقلّ تعباً فهو أقلّ نتانةً، فصمد.

دام ذلك بعض الوقت ثمّ تحسّنت الأمور قليلاً. فقد كان لإقبال إميل على الدراسة قدرَ جهده أن تمّ تعيينه في المعهد الكيميائيّ، وهناك كانت الأمور أفضل. ومع أنّ المسألة لم تكن تتعدّى تحضير السلّولوز في عنبر صقيعيّ ملآن بقوارير الحمض، فإنّ إميل أحسّ بأنّ الوضع أحسن. صحيح أنّه كان يفضّل أن يساهم داخل المختبر في تحسين الدّباقة أو في تطوير الحرير الصناعيّ، ولكنه يصرّح بذلك في انتظار أن يكون راضياً تماماً. يعجبه الوضع ما دام رئيس المهندسين راضياً عنه، يشجّعه على مواصلة

(1) كرة المضرب. (كلّ الحواشي من وضع المترجم).

Twitter: @ketab_n

دروس المساء في المدرسة العليا. مسيرة صغرى لكيميائيّ تشيكيّ بدأت تتضح ببطء.

مشكل وحيد في الورشة: أنّ شركات باتا الراغبة دوماً في بيع مزيد من أحذيتها التي تصدّرها إلى العالم أجمع، وهذا أمرٌ يمكن تفهّمه، لم تقنع بترشيد العمل إلى الحدود القصوى، بل كانت تريد أيضاً التعريف باسمها بكلّ الوسائل وتستعمل في سبيل ذلك كلّ المحامل الدعائية التي يمكن تخيّلها. ومن بين مبادراتها الأخرى، بعثُ فريقِ كرة قدم تابعٍ لها، مطالَب بحمل ألوان علامة المصنع في كلّ الملاعب. إميل لا يهمّه ذلك كثيراً، ولكن لسوء حظّه كانت تنظّم أيضاً، كلّ عام، مسابقة في العَدْو تُسمّى «مسار زلين»، من واجب كلّ طلبة المدرسة المهنية أن يشاركوا فيها، مرتدين أقمصة رياضية تحمل شعار المؤسّسة. وهو ما يكرهه إميل.

كان يكره الرياضة، على أيّة حال. وقد يعامل باحتقار إخوتَه وأصدقاءه الذين يزْجون أوقاتهم بغباوة في ركل كرة. عندما يُجبرونه أحياناً على اللّعب، كان يشارك على مضضٍ، فلا يعرف كيف يتصرّف، ولا يفهم شيئاً من

Twitter: @ketab_n

القواعد. يتظاهر بالاهتمام، وهو يحوّل نظره محاولاً خفيةً تجنّب الكرة التي لا يفهم أبداً مدار قذفها. فإذا ما حطّت لسوء حظّه بين رجليه، ركلَها ركلة قويّة ليتخلّص منها، في أيّ اتّجاه، وغالباً ما تَسقط في مرمى فريقه.

لا يولي إميل إذنْ مسارَ زلين أدنى اهتمام، ولا يشارك فيه إلّا اضطراراً، يحاول قدر جهده أن يتغيّب عن هذه السُّخْرة ولكن دون جدوى. فكم مرّة تظاهر بالعرج قبل الانطلاق بساعة، متعلّلاً بجرح أليم في الكاحل أو في الركبة للحصول على إعفاء، وكم مرّة صرّ أسنانه وتأوّه بقوّة، دون أن ينخدع الأطبّاء. لا بدّ من اقتحام العقبة. حسناً. سيقتحمها. لا يحبّ إميل الرياضة، لا سيّما أنّ أباه نقل له كرهه هو للتمرين البدنيّ، الذي لا يبدو في نظره غير مَضيعة للوقت وللمال بخاصّة. العَدْو، مثلاً، هو حقّاً خير دليل في هذا المجال: ليس فقط أنّه لا يصلح لشيء بتاتاً، يلاحظ والد إميل، بل هو يسبّب علاوة على ذلك عمليات إعادة تنعيل مكلّفة لا يأتي من ورائها غير إثقال ميزانية العائلة.

تلك الميزانية –الأب عامل في منجرة، والأمّ في البيت،

Twitter: @ketab_n

وسبعة أطفال، ولا فلس-، إميل يعرف جيّداً ما هي. هو يتّفق في مسألة الرياضة مع أبيه الذي كان يفضّل من ناحية أخرى أن يراه معلّماً بدل الدخول إلى المصنع. وإميل كان يريد اجتياز الامتحان ولكن جرت العادة في تشيكوسلوفاكيا، منذ القرن الثامن عشر، أن يكون المعلّم قائد مرتّلين قبل كلّ شيء مكلَّفاً بتعليم الأطفال الغناء، وإسماعهم الموسيقى وإطلاعهم عليها. غير أنّ إميل، لسوء حظّه، كان ولا أسوأ في الغناء: أخفق من تلقاء نفسه، فلم يبقَ سوى باتا.

باتا حيث كان يمكن لمستقبل إميل، إذا استثنينا حكاية مسار زلين البغيضة، أن يتراءى محفوفاً بقدرٍ من النجاح، ولكن هيهات، فالألمان حلّوا. كانت الأعلام النازيّة قد اكتسحت المدينة، وحامِلوها كانوا يجوبون ساحاتها وشوارعها في كِبْر، وبلغوا حتّى مكاتب مصنع الأحذية حيث استولوا على السلطات كما هو الشأن في كلّ مكان. قُطعت اعتمادات البحث في المختبر، وعُلّقت المحاولات الجارية، ومُنِعت التجارب. لم يبقَ غير مواصلة الدروس، واجتياز الامتحانات، وفي انتظار ذلك، العودة إلى الورشة.

Twitter: @ketab_n

3

خيّمت الدعاية القومية الاشتراكية[1] بمختلف أوجهها. وُضعت الصحافة والأفلام والكتب والأغاني تحت الرقابة. حُظِر الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية. جُعِلت الاجتماعات والمحاضرات شبه إجبارية، واستمرّ توزيع كتيّبات، ولصْق إعلاناتٍ على نطاق واسع. كانت الشوارع مرصّعة بصحف حائطية، وصور تحقيقات صحفية تبين أنّ جيش الاحتلال مستقيم كأحسن ما تكون الاستقامة. ثمّ إنّه لا وجود لاحتلال. فالجيش الألمانيّ يحترم الأشخاص والممتلكات. والجنديّ الألمانيّ صديق الأطفال.

في السينما، حينما يجد إميل الوقت والمال لارتياده، كان يمكن أن يشاهد أشرطةَ الأخبارِ الجديدةَ، التي كانت تُبثّ

(1) أي الدعاية النازيّة.

Twitter: @ketab_n

قبل الفيلم كأشرطة وثائقية كلاسيكية، وتُقدَّم بوصفها ذاك، في شكل شهادات جادّة قائمة على معلومات جادّة. كانت عبارة عن صور متناسقة، مغرية، ينطبع عليها صوت دافئ خارج إطار الصورة يخاطبه بلطفٍ معلناً العودة إلى الوضع الطبيعيّ، والسّلْم، والتضافر والأخوّة.

ومن خلال جهود بعض جمعيات الشباب الناشئة حديثاً، كانت الدعاية تُمارَس بقوّة أيضاً في المدارس والجامعات. ومن بين مبادرات المحتلّ الأولى إقامة تظاهرات رياضيّة للشباب، في ألعاب القوى والألعاب الجماعية، هنا أيضاً، كان الأمر شبه إجباريّ.

المسابقة الأولى التي شارك فيها إميل هي إذن سباق ضاحية بمسافة تسعة كيلومتر نظّمها الفيرماخت[1] في برنو وستضع وجهاً لوجهٍ منتخباً ألمانيّاً قويّ البنية فارع القوام متأنّقاً، مجهّزاً بكيفيّة مثاليّة، كلّ أعضائه متماثلون في نوع من الأوبرمانش[2]، ونفراً من تشيك عجافٍ رِثاث

(1) Wehrmacht: الجيش النظامي الألماني في عهد النازية.

(2) Übermensch: مفهوم الإنسان فوق العاديّ المنسوب لنيتشه، والذي اختلف العرب في ترجمته (الإنسان الأعلى، الإنسان الأسمى، الإنسان الأرقى).

Twitter: @ketab_n

الهندام، وهم قرويّون شبّان زائغو النظر في سراويل طويلة أو لاعبو كرة قدم هواةٌ غيرُ متمرّسين وحليقون بشكل رديء. إميل لا يشارك عن طيب خاطر في هذه المسابقة ولكن، لكونه حيَّ الضمير، ينخرط فيها ويعطي كلّ ما عنده. وبما أنّه أنهى السباق في المركز الثاني دون أن يتفطّن ورغم أسف الآريّين المرير، انتبه إليه ممرّن النادي المحلّي. أنت تجري بكيفية غريبة ولكنك تكاد تُحسن الجريَ، قال له. بصراحة أنت تجري بكيفيّة غريبة، ألحّ الممرّن وهو يهزّ رأسه في إنكار، ولكن حسناً، أنت تكاد تُحسن الجري. من هاتين المقولتين، لم يسمع إميل ولم يدرك بغير تركيزٍ سوى المقولة الثانية.

ولمّا كان الرفاق قد لاحظوا أنّه، على غرابته، ليس رديئاً، فقد اقترحوا عليه أن يعود للعدْو معهم ولكنّه رفَض. هو يحبّ أن يجري مثلنا جميعاً من وقت إلى آخر، ولكن ليس أكثر. رغم صدفة تلك النتيجة الجيّدة ببرنو، لم يؤمن بمؤهّلاته بصفة خاصّة، ثمّ إنّه لا يفكّر فيها، تلك ليست قضيّته وعلى أيّة حال هو يدرك جيّداً أنّ الآخرين في معظمهم يجرون بأسرع منه. في الأصباح،

Twitter: @ketab_n

عند العودة من تمارين الرياضة البدنية، يسمح لنفسه بالعدْو معهم مسافات قصيرة بأقصى سرعة، لكي يطيّب خاطرهم وعادةً ما يكون بين الأخيرين. كان عندئذٍ يقول لا، ويقول إنّه يفضّل ألّا يشارك، وإن ذلك لا يسترعي اهتمامه، وإنّه على وجه الخصوص- ويشدّد على عبارة «على وجه الخصوص» تلك- لا يريد أن يسمع حديثاً عن السّباق.

غير أنّ إميل، كما نعلم، حينما يقول لا، يُرفقها بابتسام. هو يبتسم طول الوقت على أيّة حال، لذا نحبّه، ولذا، نلحّ عليه. يُتوسَّل إليه ولكن ليس من الصعب إقناعه، وهو ما يجعله يلوم نفسه قليلاً على هذا الضّعف فيه. فمهما شرح ألّا رغبة لديه في المشاركة، فهو لا يعرف كيف يرفض لمدّة طويلة. هيّا، يقول مستسلماً في النهاية، موافق. ويأتي.

ما لم يكن متوقّعاً، أنّ ذلك لن يلبث أن يستهويه. هو لا يقول شيئاً ولكن يظهر أنّه يجد فيه متعته. وها هو يبدأ بعد بضعة أسابيع في العدْو وحده، لمتعته الخاصّة، وهو ما يثير استغرابه هو نفسه ويفضّل ألّا يذكره لأيّ كان. عند

Twitter: @ketab_n

هبوط الليل، حيث لا أحد يقدر أن يراه، يقطع المسافة بين المصنع والغابة جيئة وذهاباً بأسرع ما يمكن. إن لم يأت هو على ذكر ذلك بكلمة، فإنّ الآخرين اكتشفوا سرّه وأمعنوا في الإلحاح، بما أنّ له من الطيبة ما يجعله لا يصمد طويلاً، فيعود إلى السباق، ما داموا يصرّون عليه.

إلا أنّه، على طيبته، اكتشف أيضاً أنّه يحبّ أن يستميت في السّباق: في المرّات الأولى التي وُضع فيها على حلبة سباق، لم يدّخر جهده وفاز بسهولة بسباقين في الألف وخمسمائة والثلاثة آلاف متر. تبارى الجميع على تهنئته وتشجيعه وكوفئ بكعكة مزبّدة وتفّاحة، وطُلب منه أن يعود فعاد وبدأ يتدرّب في الملعب، أوّلاً لكي يروّح عن نفسه ثمّ بترويح أقلّ فأقلّ. يقع ملعب زلين البالغ البشاعة والمحصور في المنطقة الصناعية قبالة المصنع الكهربائيّ: تطرد الريح نحوه دخان مداخنَ وسخاماً وغباراً يَحطّ كلُّهُ في عيون الرياضيّين. ورغم تلك الموانع، بدأ إميل يحبّه هو أيضاً، ذلك الملعب، فالهواء الثقيل الذي نتنفّسه فيه على أيّة حال أنقى من هواء الورشة.

ثمّ إنّ الأمور في الورشة لم تتحسّن. فإثرَ خلافٍ، تعرّض

Twitter: @ketab_n

إميل إلى النقل من مركزه وتكليفه في رشّ السّيليكات[1] كعقوبة مهنية. هي مهمّة أكثر مشقّة من غيرها، فالغبار الأبيض الذي يغطّي جسده والذي يتنفّسه يمنحه هيئة شبح يكتم أنفاسه طول الوقت. ولمّا تذمّر وطلب نقلَه، عرض عليه رئيس العاملين في لهجة من يُسدي معروفاً، أن يُرسَل إلى معسكر الشّغل[2]، إذا لم يكن راضياً. فلم يلحّ إميل.

(1) السّيليكات: يُصنع هلام السيليكا من سيليكات الصوديوم، وتوضع حُبيبات منه مع المنتجات الجلدية والأجهزة الألكترونية وفي علب الأدوية والأطعمة، لأنّه يقلّل الرطوبة ويحدّ من مخاطر التلف والتعفّن.

(2) شكل من أشكال المعتقلات، جعله النازيّون للسخرة والاسترقاق الجماعي.

Twitter: @ketab_n

4

ولّما كان الألمان ينشرون يومئذ الرعب في المحميّة، يَنفون ويُقتّلون، يُحرقون ويُدمِّرون بكلّ ما أوتوا من قوّة، فإنّ مواصلة العدْو تسمح ربّما بالتفكير في شيء آخر. وبما أنّ إميل كان قد حقّق مؤخّراً هزيمة مشرّفة في الثلاثة آلاف متر، إذ كان الثّاني في الترتيب بفارق ثانيتين عن الفائز، فإنّ أحد المحرّرين طبع اسمه لأوّل مرّة في جريدة محليّة ليس لها الحقّ، على أيّة حال، في طبع شيء آخر ذي بال. قرأ إميل المقالة عشر مرّات كما نفعل في مثل هذه الحالة، ولكنّه كان ينظر خاصّةً إلى الاسم، هذا الاسم المثير للاستغراب الذي لم يكن يعرفه تحت هذه الهيئة المطبوعة، والذي لم يره قَطّ هكذا، أثرٌ غريب أن يُلفي نفسه في مثل هذه الهويّة العامّة الجديدة. زد على ذلك أنّ الهوية العامّة، وهو في زلين وفي

Twitter: @ketab_n

سنّ العشرين، لا يعرف بالضبط معناها.

ما لا يفهمه أيضاً أنّ الآخرين، في الملعب، كانوا يتحدّثون كلّ مرّة برصانة عن سباقهم، بقدر من الجدّ كما لو كان الأمر كذلك. والحال أنّ العدْو، بالنسبة إلى إميل، صار متعة حتّى وإن أدرك أنّ تلك المتعة ينبغي تعلُّمُها. ومن ثَمّ، صار هو الذي يبالغ. في الشتاء، بين فصلين، كان يتدرّب بلا رويّة فيما الآخرون يخلدون إلى الراحة في بيوتهم. يندفع كلّ يوم إلى الطريق حتّى القرية المجاورة، ثمانية كيلومترات ذهاباً وإياباً دون انقطاع، ويعود باستمرارٍ إلى الملعب حتّى وإن كان ذلك متعباً ومؤلماً. يتعنّت بشكل يجعل الآخرين يقلقون عليه. أنت مجنون تماماً يا إميل، يقولون له في فزع، سيصيبك الإرهاق. اشتغلْ بدل هذا على أسلوبك. كلّا، يقول، الأسلوب هُراء. ثمّ إنّ الخلل لديّ هو أنّي بطيء جدّاً. وإذا لم يكن من العدْو بدّ، فالأفضل أن يعدو المرء سريعاً، أليس كذلك؟

كان يرفُض إذن أن يقْصر تمرينه على طاقة احتماله، على غرارهم هم الذين لا يستعدّون إلّا للمسافات الطويلة ونصف الطويلة التي اختاروها مجالاً لهم. أمّا هو، فقد قلب

Twitter: @ketab_n

الترتيب، إذ صار لا ينفكّ يتدرّب على السرعة، في مسافات قصيرة يعيدها باستمرار، ما جعله يتطوّر بشكل مقبول.

مقبول إلى حدّ أنْ تصوّر مواجهة متخصّصين آخرين غير رفاق زلين. في البطولة التي تضع وجهاً لوجه بوهيميا وموراڤيا ببراغ، سجّل إميل اسمه لأوّل مرّة في سباق ألف وخمسمائة متر، لينافس ثلاثة من أفضل العدّائين التشيك في المسافة نصف الطويلة. وكان هؤلاء قد تشاوروا فيما بينهم ووضعوا خطّة هجوم ضدّ حامل اللّقب، شخص يدعى ساليه. الخطّة بسيطة. سيعْدون منذ الانطلاق بأسرع ما يمكن وفي البال أنّ المدعوّ ساليه، المعروف كعدّاء مسافات قصيرة، سيخفّض من سرعته ويكفّ عن الصراع حينما يرى نفسه بعيداً عن الكوكبة المتصدّرة. خطّة التشيك الثلاثة، على بساطتها، كانت قيد النجاح، فساليه وهَن عزمُه، والتشيكيّون الثلاثة مغتبطون. ولكنهم غفلوا عن إميل الذي له وجهة نظر شخصية عن الطريقة التي ينبغي توخّيها. فقد اكتفى في البداية باقتفاء خطى ساليه دون إخلال، ولمّا رآه ينخذل، أجاز لنفسه تجاوُزَه ليقتفي أثر الثلاثة الأوائل، ثمّ تركهم خلفه الواحد تلو الآخر.

Twitter: @ketab_n

قبل مائتي متر من خطّ الوصول، ضاعف سرعته، وهو يعلم أنّ ذلك بإمكانه لأنه استعدّ له: وفاز.

لم يكن الإسراع القويّ النهائيّ نحو الهدف معروفاً في تلك الفترة، فقد جرت العادة أن يقسّم المتسابق جهده، ويوزّعه خلال الرهان. ولحرصه على ادّخار جهده حتّى النهاية، لا يتصوّر أنّه يستطيع ذلك، بل لا يجرؤ على ادّخار كلّ سرعته ليستظهر بها في الخطّ المستقيم النهائيّ، وإعطاء ما عنده في نهاية السباق. من هنا تأتي أهميّة الاستعداد أيضاً لمسافات قصيرة: الإسراع القويّ النهائيّ، ها أنّ إميل قد ابتدعه.

وإذ بدأ إميل يهتمّ بدقّات قلبه ودرجة إعيائه، صار يريد أن يعرف مدى احتماله. واصل التمرّن كامل الخريف، وكامل الشّتاء، لا في الملعب فقط، بل في الشارع أيضاً، في الطرقات، في الغابة، في الحقول، في أيّ مكانٍ، إلى حدّ إيلام نفسه، وفي أيّ طقس كان، لم يعد يعدو كإنسان بل كحيوان من تلك الحيوانات الموهوبة أكثر منّا لمثل هذا. ولمّا كانت الطريق المؤدّية من بيته إلى المصنع تمرّ عبر صفّين من شجر الحَور، جرّب شيئاً جديداً لكي يعلم.

Twitter: @ketab_n

في اليوم الأوّل، كتم أنفاسَه مشياً حتّى الشجرةِ الرابعة، وفي اليومين التاليين حتّى الشجرةِ الخامسة، ثمّ السادسة، وهكذا دواليك كلَّ يومين إلى أن بلغ نهاية الطريق دون أن يتنفّس. ولكن ما كاد يصل حتّى أُغمي عليه. أُغمي عليه مرّة ثانية وهو يستحمّ بدشّ بارد بعد دزينة من خطوط مستقيمة قطعها بأقصى سرعة. لن يأتيَ بتلك الغرائب مرّة أخرى ولكنّ كلّ ذلك يهمّه.

هكذا ألفى نفسه يحطّم رقماً قياسيّاً، في زلين، حيث صار أوّل من يقطع خمسة آلاف متر في ربع ساعة في بلاده. تعجّب الناس، ومجّدوا، وأعلموا الصحافة الوطنية، إلّا أن أهل براغ لم يصدّقوا. في البداية عدّوه خطأً في جهاز المُبْرِقة، ثمّ تلاعباً في ميقَت[1] زلين. ثمّ ما هي بلدة زلين هذه؟ ومن يكون هذا البائس؟ من يكون هذا المخادع؟ ورغم ذلك فإنّ إميل، بعد أن حسّن ربع ساعته في بلدته، شارك في سباق ألفَي متر في براغ نفسها وحطّم رقماً قياسيّاً جديداً، هو الثالث بالنسبة إليه في ذلك العام. ما اضطرّ أهل براغ إلى الاعتراف بأنّهم كانوا مخطئين.

(1) آلة قياس الوقت.

Twitter: @ketab_n

5

الوقت عسير في زلين، والشتاء قاسٍ. كان قصف المدينة خلال شهر نوفمبر قد أحدث أضراراً جسيمة. لم يعد من تدفئة في أيّ مكان، وكان الناس يتجمّدون في انتظار نهاية الحرب التي لن تتأخّر، على ما يقال. فمنذ بداية الربيع، كانت مداخن قصر البلدية المحتلّ تنفث باستمرارٍ دخاناً بنّيّاً دبقاً يعفّن كامل المدينة ويسيء إلى نوعيّة الهواء في الملعب: يبدو أنّ الألمان صاروا يحرقون أرشيفاتهم. أن يتلفوا هكذا وثائقهم السرّية يشي بمقدار انزعاجهم وهذه ليست أمارة سيّئة بل بعض أمل. لا موقد ولا أيّ مصدر آخر للحرارة في زلين المتشحة بالأسود الرماديّ والأبيض الصقيعيّ إلّا في غرفة المدرسة المهنيّة، حيث أعدّ إميل ورفاقه كيفما اتّفق موقداً قديماً عثروا عليه

Twitter: @ketab_n

في الأنقاض. ورغم حكم الإعدام شنقاً المنصوص عليه لمثل تلك الأفعال، جمعوا الحطب وسط الخراب وقضّوا الشتاء هكذا.

خلال الربيع، وبما أنّ الجبهة كانت لا تني تقترب، كان يُحظر التمرّن وحتّى القيام بأيّ نشاط آخر. ولكن مع عودة الشمس التي ترغّب المرء في شمّ الهواء، لم يقاوم إميل رغبة الخروج للقيام ببضع دورات على الحلبة. وجد باب الملعب مغلّقاً، فتسلّق السّور، ونفذ من نافذة غير مغلقة بإحكام، ثمّ عبَر إلى حجرات الملابس حتّى بلغ ميدان العدّائين. كان في حال سيئة، وقد تحلّل خبَث حديده المغزوّ بأعشاب طفيلية، ولكنّه كان هنا.

جعل إميل يذرعه وهو يقيس نفَسه حين ارتفعت صفّارات الإنذار. منذ بداية سنوات الحرب، تعلّم كيف يتعرّف على شَفرتها بدقة، وهو يعلم أنّ علامتها الممطوطة، هذه المرّة، تنمّ عن إنذار وعن دبّابات في الأفق. قد تكون إشارة وصول قوّات التحرير التي طال انتظارها. بدأت فعلا سلسلة انفجارات ترجّ الهواء بغير انتظام: كانت المدافع الألمانية المضادّة للطائرات الموضوعة

Twitter: @ketab_n

على مرتفع فوق الملعب قد أطلقت النار. ترك إميل مضمار العدْو في حذر ولكن، قبل الرجوع إلى بيته، اغتنم وجوده هناك ليعيد المرور من حجرات الملابس، ويسترجع أزياء تدريب رفاقه ليحملها تحت ذراعه ويأخذها معه إلى المدينة. وفيما هو يسير لصق جدران شوارع أخلاها الإنذار، اضطرّ إلى التوقّف، والانزواء في مدخل عمارة مطلّة على ساحة الكنيسة التي كان يعبرها بسرعةٍ رتلٌ من العربات باتّجاه الغرب. لم يتوانَ المحتلّون عن محاولة الفرار، ولم يفقدوا كلّ أمل في النجاة ولكن كان بادياً من ملامحهم أنّهم خائفون. في مكان ما بين المدينة والغابة، بدأت طلقات رشاشات تتناهى إلى الأسماع، كدليل على أنّ التبادل خطير وأنّ الجيش السوفييتي ليس بعيداً حقّاً.

رغم ما كان يحدث، كان حريصاً في البداية على تسليم الأزياء إلى أصحابها، ثمّ جرى نحو المدرسة المهنية حالَما خلت الطريق. ولكنّه وجد الأبواب موصدة، إذ كان الجميع قد لاذوا بالأقبية منذ بدء الإنذار. في الجانب الآخر من الشارع الذي كان سيعبره، انهار منزلان تحت وقع قنبلة. تراجع إميل على عجل، وما كاد يجد طريقاً مختصراً

Twitter: @ketab_n

للوصول إلى المدرسة حتّى سمع أحدهم يصرخ من مكانٍ ما أنْ نعم، الرّوس وصلوا، وبدؤوا القصف من الغابة.

وها أنّهم بالفعل، في قلب حديقة المبيت: جنود بأزياء مجهولة يتقدّمون وهم يتقصّون ما حولهم في توتّر. جعل إميل يصرخ بدوره ويجري نحوهم، كان أوّل من تحدّث إليهم، ومن قال لهم إنّ الناس في انتظارهم، وإنّه مسرور برؤيتهم، وإنّه يرحّب بهم، قال أيّ كلام. أجاب الجنود باقتضاب وهم يقلّبون النظر في نَواحٍ أخرى، ولكنّهم كانوا يجيبون رغم ذلك. لا يملك الطّرَفان ألفاظاً كثيرة للتفاهم ولكنّهما يتصافحان ويربّتان أحدهما على كتفَي الآخر، ويتبادلان الحديث بالإيماء والإشارة ويتفاهمان نوعاً ما بهذه الكيفية.

وسرعان ما اقترب سكان زلين وهم يخرجون من مخابئهم الواحد تلو الآخر. كان للجنود السوفييت ابتسامات متعَبة وانشغال بمعرفة المكان الذي يوجد به الألمان. هرب أغلبهم، قيل لهم، مع الإشارة إلى المكان الذي فرّت منه آخر العربات. ولكن لم يُحسم كلّ شيء، لا ريب أنّ جانباً منهم مختفٍ في الجوار. كان لا بدّ من

Twitter: @ketab_n

إخراجهم: بعض الوحدات التي وصلت في المساء توقّفت في زلين. وما أسرع ما حُدّدت مراكز القيادة ومواقع البطاريات لبدء عملية التطهير، وما هي إلّا دقائق حتّى استهلّت مدافع الحصار الكلام.

عند هبوط الليل، هدأت الأوضاع، ولم يستطع إميل، بعد أن عاد إلى بيته، أن ينام. ولمّا كحّل النوم أجفانه، أفاق منتفضاً عند منتصف الليل على صوت طلق ناريّ، ثمّ سمع جوقة رشاشات تستأنف نشاطها. منفردة، جماعية[1]، متطابقة، كانت معركةُ مدفعياتٍ حاميةٌ قد نشبت ضدّ عدوّ يحاول بضراوةٍ فكّ الحصار عن آخر وحداته.

لم يعنِ ذلك أيّ نصرٍ إذن وظلّ الناس مرعوبين، خائفين من مصيرهم لو نجحت المحاولة الألمانية، لأنّ البقية عندئذٍ معروفة، رهائن، أعمال انتقامية، إلخ. هرع الناس من جديد إلى الأقبية والملاوذ فيما كان المدافعون صامدين، يردّون على الطلقات أو يستعيدون المبادرة، وما هي إلّا برهة حتّى بدا أن قوّات الاحتلال اندحرت. كان إميل يتابع ما يجري إذ لم ينسحب كبقية الناس، وقد تسلّح

(1) بالإيطالية في الأصل : soli, tutti.

Twitter: @ketab_n

بمجرفة أرياف لكي يمدّ يد العون للجنود، يساعدهم على حفر خنادق، ووجْه الإفادة منه قليل ولكن له أهميّته. لاح الوضع كأنّه يميل إلى الأحسن وإذا بالألمان يعاودون فجأة إطلاق النار بشدّة، وهم يبحثون عن ضحاياهم في المنحدرات الكبرى المكشوفة خلف المدينة، ولا هوادة.

تواصلت المعركة طوال اللّيل. ما تبقّى من فرقة المشاة الألمانية، المتحصّن في الغابة، كان يجهد في الصمود، والفتك بأكبر قدر ممكن من الناس قبل التفكير في الانسحاب. ولكن فيما كان يجري تحديد مواقعهم بدقّة، ومراقبتهم أو خداعهم، تمّ الاستنجاد بقوّات إضافية قدِمت للدّعم بسرعة. وما هي إلّا ساعات، عند شروق الشمس، حتّى أبيد آخر جيوب المقاومة بأكمله بواسطة قذائف الهاون السوفييتية. وعاد الصمت يخيّم على زلين. انتهت الحرب.

Twitter: @ketab_n

6

بما أنّ الحرب قد وضعت أوزارها، فقد لُجِئَ إلى التسلّح من جديد. استعادت تشيكوسلوفاكيا حدودها وبدأت تعيد تأسيس جيشها، ودُعي إميل إلى أداء خدمته، فغادر مؤسّسات باتا غير آسِف. أحسّ لأوّل وهلة أنّ الحياة في الثكنة تناسبه أكثر من المصنع. ولمّا كان معتاداً على التدرُّب، فإنّ التمرين اليوميّ لا يشكّل مجهوداً بالنسبة إليه، فهو يحبّ المناورة في الريف المورافيّ، وتسلُّق الهضاب مع فوجه، والتمتّع بالطبيعة المتناسقة واستنشاق الهواء النقيّ بعيداً عن أغبرة السيليكات.

ثمّ إنّ السباق لم يَضِع منه شيء: بما أنّ بطولات عسكرية تنظّم في الجمهورية المستقلّة، فإن ضبّاط أركان الجيش المعنيّين بالشأن الرياضيّ سمحوا لإميل بالمشاركة. هناك

Twitter: @ketab_n

حقّق رقمين قياسيّين جديدين، ولمّا عاد، تمّ ذكره في جدول العمل لكونه مثّل وحدته أحسن تمثيل. لا شيء حقّاً يجري على غير ما يروم إميل تحت الزّيّ، ما جعله ينوي الانخراط في الأكاديمية حيث يتمّ تكوين الضبّاط النظاميّين. أن يكون ضابطاً ليس بالأمر الهيّن، لمَ لا. ثمّ إنّه يقبل أيّ شيء إلّا أن يعود إلى باتا. تظاهر بالتردّد خمس دقائق، ولمّا كان يلقى تشجيعاً على ذلك، ترشّح، وقُبِل. كانت المؤسسة العسكرية، المولعة بالرياضيّين، قد تنبّهت إليه منذ مدّة على أيّة حال، وفتحت له ذراعيها على وسعهما.

يوم وصوله إلى الثكنة، وفيما هو يطلّ من إحدى النوافذ، أبصر مضماراً يحيط بالساحة ويبتسم له هو أيضاً. كانت البداية حسنة أو تكاد حتّى وإن لم تكن الحياة وردية في الأكاديمية، ولكن لا علينا، فإميل كان يفعل ما يُطلب منه أن يفعل، ويدرس ما يُطلب منه أن يدرس، ولا يغيب عن يوم تدريب. عدا أنّه، عندما يخلد غيره من الطلبة إلى الراحة، كان يرتدي زيّه الرياضيّ ويذهب إلى التمارين، وهو ما أتى أُكْله مرّة أخرى: فبعدها بأسابيع، في براغ، زاد في تحسين أرقامه في الثلاثة آلاف وخمسة آلاف متر، متقدّماً

Twitter: @ketab_n

أشواطاً على منافسيه.

في تلك اللّحظة من حياته، لم يكن إميل يملك خبرة المباريات الدُّوَلية. وها أنّ الفرصة قد أتيحت له للتنافس في مسافة الألفي متر مع النخبة العالمية للعدّائين، وخاصّة السويدي سوندين ذي الخطوة الأنيقة والرشيقة، والذي يبدو أنّه يتقدّم دون جهد ولا إعياء، ويضاعف سرعته أو يخفّضها كما يشاء. ولا بدّ من الإقرار بأنّ أسلوب إميل ليس كذلك بالمرّة. فطوال النصف الأوّل من المسافة، كان إميل في مستوى سوندين، يرقبه عن كثب لكي لا يفوته، ولكن، عندما اندفع السويدي إلى الأمام، حاول إميل مجاراته دون جدوى واجتاز خطّ الوصول وراءه مباشرةً. لم يفز إذن، إلّا أنّه حطّم الرقم القياسيّ التشيكوسلوفاكي.

بعد مدّة قصيرة، في برنو، قابل في مسافة الثلاثة آلاف متر الهولنديَّ سليخَوْيْس، أسرع عدّائي أوروبا وأكثرهم رشاقة، والذي يسحر الجمهور بخطوه الرشيق. بخلاف النوع الذي يمثّله إميل الذي استمات رغم ذلك من أجل كلّ سنتمتر حتّى الوصول، ولكن دون جدوى. دوّى التصفيق في المدارج باسترسال، وإميل لم يفز بعد، رغم أنّه

Twitter: @ketab_n

حسّن الرقم القياسيّ التشيكوسلوفاكي.

لم يكن في غاية السرور، وقد أدرك أنّ ما لم يتعلّمه بعدُ كثيرٌ. عندما دعي إلى أوسلو، لخوض أولى بطولات أوروبا بعد الحرب، قدّر أنّه ليس في المستوى وفضّل ألّا يشارك فيها. ولكن لمّا كانت تشيكوسلوفاكيا تصرّ على أن تكون ممثّلة، فقد ركب الطائرة رغماً عنه بصحبة أربعة رفاق، وكانت تلك أوّل مرّة يغادر فيها بلاده.

إميل، وهذا ما لم نفصّل القول فيه، ولدَ طُلَعَةً يَعِد نفسه باكتشاف أشياء جديدة في الخارج. ولكن في أوسلو، حُصر في الحيّ الصغير الذي جُعل لإقامة الرياضيّين، فلم يرَ من المدينة شيئاً يُذكر. في معسكر الأبطال ذاك، حيث التقى بمنافسين لم يكونوا في نظره سوى أسماء تلمع بالمجد، وقع على أشخاص عاديّين: وودرسن له هيئة كاتب عدل، سليخويْس ساذج تماماً، نيبرغ فكِهٌ نوعا ما، رايف رصين فوق اللزوم، بوجازون راضٍ عن نفسه. ولكن هناك خاصّةً هاينو، العظيم فيليو هاينو[1]، ذلك

(1) Viljo Heino (1914–1998) بطل أولمبي فنلندي متخصّص في العشرة آلاف متر.

Twitter: @ketab_n

الذي يطلق عليه لقب عدّاء الغابات العميقة المهيب، بطل فنلندة وصاحب الرقم القياسيّ العالميّ، الرجل الصامت المرتاح البال الذي أحدث ثورة في فنّ العدْو بالاعتراض على زخارف الأسلوب والبحث الدائم عن أدنى جهد. دنا منه إميل وكأنّه إله، لمس في خجلٍ رجليه كأنّهما من النفائس الأثريّة، والرجل صامت كعهده لا يُرعيه نظره.

كلّ أولئك الناس العاديّين، القادمين من أوروبّا الغربية، هم على أيّة حال في أحسن هندام، وبدلاتهم الرياضية رائعة، ولم يكن التشيكوسلوفاكيّون الخمسة مرتاحين بينهم. فبعد الحرب بقليل، كان الحرمان لا يزال قائماً، والإمكانات محدودة وبلادهم لا تستطيع أو لا تريد أن تجهّزهم كما ينبغي. دون عدّة تمارينهم التي ينبغي ارتداؤها وجوباً في استعراض البطولات العالمية، كانوا مضطرّين إلى الظهور بملابسهم الرياضية البسيطة، فيحسّون بأنّهم عراة، وبأنّ في ذلك مهانة.

لأوّل مرّة في حياته، ألفى إميل نفسه في نقطة انطلاق أوسلو مع خيرة لاعبي القوى في العالم، تحت أنظار جمهور متحفّز، قادم من كلّ مكان، متعطّش لأرقام قياسية

Twitter: @ketab_n

جديدة. الأبطال الكبار، وكلّهم معروفون جيّداً، صفّق لهم الجمهور لحظة دخولهم، وودرسن من قبل البعض، وهاينو من قبل البعض الآخر، أمّا إميل فلا أحد صفّق له، وكان يحسّ أنّ ركبتيه ترتجفان.

خيّم على المدرّجات صمتٌ قطعَه عيار مسدّس الانطلاق وبداية التنافس في الخمسة آلاف متر. بعض المتسابقين تبنّوا منذ البداية نسقاً لا يُصدَّق، سرعةً اعتبرها إميل جهنّمية وهو يبحث بنظره عن وودرسن المرشّح الأكبر للفوز. ولكنّ هذا الإنكليزي بقي في الخلف، على مسافة معقولة من الآخرين، لا أحد فهمَ لماذا. تساءل إميل، الذي لم يكن واثقاً من نفسه ولا من أيّ شيء، عن الخطّة التي ينبغي اتّباعها. لو بقيَ قرب وودرسن وتبعَ نسقه، فإنّ أيّ إخلال منه قد يسبّب إخلاله هو. ودون أن يفكّر طويلاً، التحق بكوكبة المقدّمة.

كان العدّاؤون يغيّرون مواقعهم باستمرار، فيحتلّون المركز الأماميّ حيناً، ويتأخّرون عنه حيناً آخر، ما يجعل التكهّن بالفوز مستحيلاً. أحياناً يكون إميل في المركز السادس، وأحياناً في الرابع حسب الظروف، أي أنّه لم يكن

Twitter: @ketab_n

يتحكّم في شيء. في الكيلومتر الثالث، كان سليخويْس أمام الجميع، وخلفه وودرسون الذي كان يطوي المسافات طيّاً في كلّ خطوة. في الدورة قبل الأخيرة، حاول سليخويْس أن يسبق الكوكبة بارتجال عملية إسراع قويّ فتقدّم على منافسيه مسافة كبيرة. إلّا أن وودرسن، الذي لزمَ الحذر، لم يدعْه ينأى كثيراً. ووفاءً لفنّه في الإنهاء، غيّر البريطاني سرعته قبل الوصول بمائتي متر. وكان حسابه مضبوطاً: تجاوز سليخويْس وانتزع منه خمس ثوانٍ عند اجتياز شريط الوصول.

طوال أوّل سباق كبير له، ظلّ إميل في كوكبة الطليعة باستمرار، وحافظ على نسقٍ مشرّف. لم يخامر الانتصار ذهنه، ولكنه كان يودّ لو ينهي السباق في المرتبة الثالثة. إلّا أنّ نيبرغ وهاينو، الاسكندينافيَّين الأكثر خبرة وادّخاراً لقواهم، تقدّما ليأخذا منه بضعة أعشار الثانية في النهاية. وصل إميل خامساً، ومرّة أخرى لم يفز، إلّا أنّه طوّر الرقم القياسيّ التشيكوسلوفاكي.

هذه الرتبة الخامسة هي عبارة عن نجاح، كان يمكن لإميل أن يفرح به، ولكنّه كعادته لم يفرح. كلّ هذا ذكّره

Twitter: @ketab_n

بأنّ عليه أن يزيد في سرعته ويحسّن تنظيم جهده، ويحتفظ بطاقته للنهاية، وخصوصاً أن يدرس خطّة الخصوم بعناية حتّى يطوّر خطّته. ثمّ هناك هذا الأسلوب الذي طالما يُعاب عليه، فلربّما كانت طريقته في العدْو هي سبب انهزامه، ينبغي إعادة النظر في كلّ ذلك. سنرى.

عاد إلى الأكاديمية العسكرية في اليوم التالي عند منتصف النّهار. بعد ساعة، دعي الطلبة إلى المشاركة في استعراض يتضمّن برنامجُه حركاتٍ في رياضة الجمباز. كان إميل بحاجة إلى الراحة، ولكنّه لم يفكّر فيها، إذ غيّر على عجلٍ زيّه والتحق بالصفوف ليشارك في التمارين.

Twitter: @ketab_n

7

بالرغم من أنّ إميل لم يفز في كلّ سِباقاته، فإنّ مراكمة الأرقام القياسية جعلت منه، ببساطة، معبود بلاده. ما أصبح يمثّله في عيون الجمهور التشيكي هو التالي: يكفي أن يظهر ذات صباح في الصحف خبر موجز يعلن أنّه سينزل إلى الميدان في الساعة السادسة مساء كي يتصارع في المساء نفسه عشرون ألف شخص عند مدخل ملعب مساريك.

اقتُرح عليه مرّة تمثيل الجيش التشيكوسلوفاكي في بطولات قوّات الحلفاء التي كانت ستدور في برلين. ولقي طلب مشاركته من رؤساء إميل سنداً قويّاً جعله يَحظى بالموافقة. حسناً، قال إميل، حسناً، سأذهب، وذهب وحيداً ذات جمعة، في زيّ عسكريّ، على متن القطار،

Twitter: @ketab_n

باتّجاه برلين، مع تغيير في دريسدن. لم يصل إلى دريسدن إلّا في منتصف الليل، والحال أنّ مسابقات البطولة تبدأ يوم السبت. كانت المدينة قد دمّرتها القنابل تماماً، ولم تعد سوى مبانٍ مهدّمة، وطرقٍ محفّرة، وأنقاضٍ متهاوية، لم يبق شيء من دريسدن سوى محطّة القطار. عندما غادر إميل المحطّة، حاول أن يجد طريقه وسط الأنقاض. لا ضوء في الشوارع المخرّبة، ولا أحد كي يهديه سبيله، وهو جائع ومتعب ومثقل بالنّوم، وإلى ذلك كان المطر ينهمر مدراراً.

أخيراً صادف ملازماً أوّلَ أمريكيّاً أمضى وقتاً طويلاً في البداية كي يفهمه ويعرف زيّه، ثمّ قبِل بأن يدلّه. تبعه إميل إلى ما يشبه قاعة انتظار، ملجأ قديم للوقاية من الطائرات حيث يدبّ بعض الحرّاس. فرح الجنود العاطلون لرؤية شخص يبدّد مللَهم، لا سيّما وهو يرتدي زيّاً غريباً لم يسبق لهم أن رأوه. هم يستغربون، ولكن إميل، في الوضع الذي هو فيه، لم يكن يرغب كثيراً في الشرح والتفسير. ينبغي أن يتسابق في يوم الغد، ذلك ما أفهموه إيّاه، قطار برلين ينطلق في الخامسة صباحاً، وخيرٌ له أن يستريح قليلاً إن كان لا يريد أن يصل إلى الملعب مرهقاً. الحرّاس لا يهمّهم

Twitter: @ketab_n

من ذلك شيء، إذ كانوا لا يكفّون يمطرونه بأسئلة لا يفهمها، فيحاول إجابتهم بإشارات لا تني تتّسع وتفقد دلالتها. وهو ما أثبط الجنود فخلّوا سبيله، وأرَوْه مقعداً، استلقى عليه ونام ساعة أو ساعتين.

لم يصل إلى برلين إلّا بعد ظهر اليوم التّالي، مرهقاً أكثر من أيّ وقت مضى، وحيداً دائماً، يتضوّر جوعاً. اجتهد كي يعرف أين يوجد الملعب، ومضى إليه بسرعة كي لا يتخلّف عن انطلاق السباق، وهو في تعب لا مزيد فيه. حلّ بالمكان بعد أن نشّفوا ريقه في نقطة المراقبة، وتاه مراراً في المبنى الضخم، وألقى على الناس أسئلة لا يفهمونها أو لا يفهم هو إجاباتهم عليها، حتّى عثر على أحد المنظِّمين. تنفّس إميل الصّعداء عندما علم بأنّ سباقه لم يكن محدّداً إلّا في اليوم التالي.

ولكنّ ذلك ليس كلّ ما في الأمر، إذ يجب التسجيل أيضاً، وبالتالي العثور أوّلاً على المنظِّم الآخر المكلّف بالتسجيلات. دلّوه أخيراً عليه، هذه المرّة كان نقيب إنكليزيّ هو المسؤول عن القائمة. أيّ بلد؟ سأل النقيب. تشيكوسلوفاكيا، أجاب إميل. حسناً، قال النّقيب، كم

Twitter: @ketab_n

من مشارك؟ بصراحة، قال إميل، أنا. نعم، قال النقيب، حسناً، ولكن باستثنائك أنت؟ بصراحة أنا، أعاد إميل، أنا فقط. هكذا، استغرب النقيب وهو يهزّ رأسه، واحد لا غير. أجل، أكّد إميل، واحد لا غير. أنا. حسناً، تريّث النقيب، وفي أيّ سباق؟ خمسة آلاف متر، قال إميل. ليكن، قال النقيب وهو يتهيّأ لتدوين اسمه على القائمة المناسبة. ثمّ عدل عن ذلك، علّق قلمه وتفحّص إميل طويلاً، ولا شكّ أنّه ألفاه مختلّ الهندام، مشوَّشاً كلّه، غير حليق، أشعث الشعر، أي في هيئة غير جادّة بالمرّة. وهل سبق أن عدوت الخمسة آلاف متر؟، ألمح إليه بلطف. هذا نعم، قال إميل، عدة مرّات. حسناً، قال النقيب وهو يزداد لطفاً، وأيَّ وقت حقّقت في هذه المسافة؟ بصراحة، أجاب إميل ببساطة، قطعتها في 14'25"8. عفواً؟ اهتزّ النقيب. 14'25"8 أعاد إميل. لحظة، قال النقيب، هل هذا ممكن؟ يمكنك أن تتأكّد، قال إميل، هذا سهل، أوسلو، بطولات أوروبا. طبعاً، بكلّ تأكيد، قال النقيب وهو يدوّن اسم إميل على عجل.

عندما خرج إميل ولم يجد سيّارة، ركب مقطورة

Twitter: @ketab_n

شاحنة مكشوفة قادته إلى مجمّع عسكريّ وضع في تصرّف المشاركين. معسكر بائس وموحل تاه فيه إميل في البداية قبل أن يحصل على حجرة صغيرة بائسة، هناك حيث جاءه بعدها جنديّ مخمور ذو زيّ مفكوك الأزرار بقدح به بقيا فاترة من الشاي. شرب إميل الشاي، ونام كقرمة حطب ومن الغد عاد إلى الملعب.

الملعب هو ذلك الذي بني قبل الحرب للألعاب الأولمبيّة، في المرّة التي رفض فيها الفوهرر مصافحة جيسي أوينس[1] لأنّه زنجيّ. جيسي أوينس انسحب من المباريات ولكن لاري سنايدر، مدرّبه في ذلك الوقت حاضرٌ هذه المرّة ضمن ضيوف الشرف. كان الأمريكان قد زيّنوا الملعب بزينةِ تلك الفترة، ولم يكن ثمّة مكان شاغر في المدرّجات، والجمهور في معظمه يتكوّن من الجنود. البداية أزفت. كان لا بدّ أن تُفتتح المسابقة باستعراض رياضيّي كلّ الدول المشاركة في الألعاب، وقد كُتب اسم

(1) Jesse Owens (1913–1980) أسرع عدّاء في فترة ما بين الحربين، وأوّل رياضيّ أمريكيّ أسود يحوز شهرة عالمية. فاز بأربع ميداليات ذهبية في الألعاب الأولمبيّة التي دارت ببرلين عام 1936، حيث رفض هتلر مصافحته وتقليده ميدالياته.

Twitter: @ketab_n

كلّ بلاد على لافتة يحملها جنديّ يتقدّم مواطني الدول المعنية. سيبدأ الاستعراض.

بحث إميل في كلّ مكان عن حامل اللافتة التي كُتب عليها Czechoslovakia، وما إن عثر عليه حتّى قدّم نفسه وهو يمدّ يده مصافحاً ومبتسماً كالعادة. ومرّة أخرى تفحّصه جنديّ أمريكي كما فعل النقيب الإنكليزي بالأمس، ثمّ بحث بنظره عن شخص آخر خلفه. لم يرَ أحداً فعاد إلى إميل يسأله: ماذا، قال، واحد لا غير؟ ربّما بدأ إميل يعتاد ولكن لا، كان محرجاً، هزّ رأسه بالإيجاب. نعم، ردّ أخيراً، واحد لا غير. لم يستطع الجنديّ أن يخفي الاحتقار الذي يثيره في نفسه هذا التافه. في البداية لم يرَ حرجاً في التظاهر أمام حشد من رياضيّي ألعاب القوى، وها هو يحسّ بأنّه يثير السخرية حين يضطرّ للسير أمام شخص وحيد. اسمه جو، فجأةً لم يعد جو يلقى طعماً لأيّ شيء. إنّه شبه مهان. كان يودّ لو يتخلّى عن كلّ هذا، ولكن فات الأوان.

فات الأوان: كانت الفرقة النحاسية قد استهلّت النوتات الأولى لـ «مارش» افتتاحيّ. افترّ فم جو في

Twitter: @ketab_n

أسى عن بسمة أقرب إلى التكشيرة. هيّا، تعال، قال بمرارة، وكأنّه ممسوس في شرفه. هيّا بنا. تعال إذن. دخل الرياضيون الملعب من الباب الكبير، وبدؤوا يمرّون أمام الدرجات وسط التصفيق والهتاف، وقد حُيّوا كلّهم في أزيائهم التدريبية الجميلة. ولكن عندما ظهر شخص واحد خلف لافتة Czechoslovakia، وحيداً في هيئة مزرية من سروال قصير وسترة بذلة رياضية كابية، انفجر الملعب كلّه ضحكاً. نهض الجميع كي يروا ذلك جيّداً. سحب المبعوثون الخاصّون مفكّراتهم من جيوبهم ولحسوا شفاهم وهم ينتقون أنسب النعوت لوصف المشهد، وانبرى مراسلو الأخبار والمصوّرون يسجّلونه ويصوّرونه وهم يشحذون زوايا نظرهم.

وبالرغم من أنّ إميل ذو طبع مرح، فقد جرحته إلى حدّ ما تلك السخرية العامة التي استطاع أن يُحدثها بمفرده. كان إذن وحيداً، ويحسّ أنّه وحيد بل تعِسٌ بعد أن تخلّى عنه جو، منذ نهاية الاستعراض، وهو يلعن ويلقي باللافتة فوق كتفه. استمع إلى خُطَب الافتتاح دون أن يفقه معناها، وهو يتأمل دون تركيز الأعلام الوطنية

Twitter: @ketab_n

المرفرفة أو المعلّقة- لا أدري هل كانت الريح تهبّ في ذلك اليوم. جلس إميل في الظلّ بركن من المدرج، وقد قوّس ظهره قليلاً وجعل يراوح النظر بين قدميه والحركة على الميدان، منتظراً أن يحصل شيء ما.

وها أنّ تشيكيّاً مهاجراً، كان قد انخرط في الجيش الأمريكي، تنبّه له ورأى فيه فرصة سانحة للتحدّث قليلاً بلغته. جلس جذو إميل وحادثه برهة. وأنت، إذن، قال له أخيراً، في أيّ مسافة تعدو؟ خمسة كيلومترات، أجاب إميل بصوت مُجهَد. ماذا، صاح الآخر مرتعباً، ألا تدري أنّهم ينادون منذ برهة أصحاب الخمسة آلاف؟ لقد نودي عليهم ثلاث مرّات. انظر إلى ذلك الركن، هناك، كلّهم موجودون بعد.

غصّ إميل بِريقه، وفزّ قائماً على قدميه، ووثب خارج المدرج ليشقّ الملعب في خطّ مائل وفي ما يشبه مسارعة نهائيّة في السّباق، جنونيّة. وهو يتخلّص من سترة بذلته الرياضية، ما أعماه لحظة وكاد يتسبّب في وقوعه على وجهه، كان يطلق صيحات ويلوّح بذراعيه، محاولاً لفت انتباه الرجال الواقفين على خطّ الانطلاق. ومن حسن

Twitter: @ketab_n

حظّه أنْ وصل في الوقت المناسب.

من يكون، هذا؟ استقبلوه بغير ترحاب. أنت أيضاً، تريد أن تعدو؟ ومن أين طلعت؟ بحثوا عن اسمه في القائمة، فلم يجدوه. عندما سجّله النقيب بالأمس، ولعلّه انبهر بالـ 14'25"8، نسي نقل التصويبات في قائمة معلِن بدء السباق. غير أنّ بعض المتنافسين الأجانب الحاضرين كانوا شاهدوا إميل، وقد شهدوا له بعد أن عرفوه، فسُمح له أخيراً بالعدْو.

حسناً، تمام، غمغم مُعلِن بدء السباق، تمام، ولكن قف إذن هنا، في الخلف، في الصفّ الثاني، بهذا الرواق. هذه المرّة، نفد صبر إميل، وسمح لنفسه بالاحتجاج. ولمّا كان يجهد كي يثبت أن من حقّه أن يكون له مكان عند حافّة المضمار، أبدى العدّاؤون الآخرون تضامنهم معه وساندوه. هم يعرفون مسيرة إميل، ويعلمون أنّه جيّد جدّاً، وأنّه من بين الذين نجعلهم على الحافّة. حسناً، زمجر معلِن بدء السباق قبل أن يرفع مسدَّسه. هيا، لننطلق.

وبما أنّ إميل، الذي وتّر ذلك الاستقبال أعصابه، تبنّى سرعة قوية منذ الانطلاق، لم يلزمه سوى وقت قصير كي

Twitter: @ketab_n

يتخلّص من أكثر منافسيه قوّة. وكانت خطاه من السرعة ما جعله يتجاوز المتأخّرين بدورة. ثمانون ألف متفرّج نهضوا عندئذ صارخين، في حركة واحدة، لأنّ إميل يمنحهم فرجة لم يشهدوا مثلها قَطّ: بعد أن تقدّم بدورة كاملة على منافسيه، انبرى يتجاوزهم من جديدٍ الواحد تلو الآخر، وكلّما ظهر عليهم الإعياء وتراخوا، ضاعف هو سرعته. فاغر الفم أو صارخاً، منذهلاً بالإنجاز وبهذه الكيفية العجيبة في العدْو، ما عاد الجمهور يتحكّم في حماسه. لاري سنايدر نفسه، واقفاً كالآخرين، كان مشدوهاً أمام هذا الأسلوب المغشوش. هذا غير طبيعيّ، قال معلّقاً، ليس طبيعيّاً بالمرّة. هذا الشخص يفعل كلّ ما لا ينبغي فعله ويفوز.

لم يبقَ غير دورتين، زعق المعلِن مندهشاً عند مرور إميل، ولكي يُفهمه، مدّ نحوه إصبعين كاد يفقأ بهما عينيه. في المدرّجات، كان الناس يهلّلون ويتململون ويهتزّون ويتهيّجون، فيما كانت كلّ الوحدات العسكرية تهتف باسمه في تناغم جماعيّ. الدورة الأخيرة، صرخ المعلِن في هياج، وقد بدا عليه الإعياء أكثر من إميل نفسه، وأطلق

Twitter: @ketab_n

معلِن بدء السباق وهو مستطار اللّبّ طلقة نارية في الهواء فرحاً في حين كان إميل يزيد في سرعته، ويرفع من نسقه إلى حدّ صار معه منافسوه بعيدين جدّاً خلفه.

عندما اندفع أخيراً في الخطّ المستقيم النهائيّ، كان الجمهور واقفاً يكاد يغمى عليه، ولمّا اجتاز الشريط جعلت المدرّجات تهدر، وبدا أنّ التصفيق لن ينتهي. ولم يخطر ببال واحدٍ، لأنّ الجميع لا يهمّهم ذلك، أن يلاحظ أنّ إميل علاوة على ذلك حطّم الرقم القياسيّ التشيكوسلوفاكي.

أمّا هو، الذي لم يبدُ عليه أثر التعب، فقد افترّ فمه عن ابتسامة وواصل الركض بلطفٍ بعد الوصول، وكأنّه يستعيد قواه بعد هذا الجهد البسيط. ولكنّهم لم يتركوه يفعل ذلك طويلاً، إذ أقبلوا يمطرونه بالأسئلة، بعضهم يغطّيه كي يدفأ، وبعضهم يخلع عنه لباسه كي يراه بصورة أفضل، وكلّهم يلتقطون له الصور من كلّ جانب، كلّهم كانوا يريدون أن يقولوا له إنّه قام بشيء لا يُصدّق. كان اسمه غير معروف تماماً خارج حدود بلاده، وبدا للناس أنّه لا يعرفه هو نفسُه، إذ كانوا يردّدونه على مسمعه بكلّ النبرات، وكأنّهم يُعْلمونه به. ظلّ إميل، وقد عرفنا أنّه

Twitter: @ketab_n

بسيط ومتواضع، خجلاً أمام هذا الإعجاب الذي يجيئه من كلّ صوب. لم يكفّ عن التأكيد أنْ لا، وأنّ هذا من لطفكم ولكن بصراحة لا، هو ليس عدّاء مُعجزاً، ولم يكن إلّا الخامس في بطولات أوروبا.

ولكن أكثرهم سعادة في هذه العملية، والذي اعتراه فرح عظيم، هو حامل اللافتة المهان. كان قلبُ جو، في تلك اللحظة، قد تمطّط كِبْراً. بعد برهة، سوف يشارك إميل في الاستعراض الختاميّ، وميداليته معلّقة في أعلى بذلته. لمح إميل عن بعدٍ جنديّه الأمريكي، واللافتة في يده، ينتظره بفارغ الصبر، ويرتمي عليه فور لحاقه به وهو في فرح غامر. واحد لا غير، كان يصرخ وهو يحضنه ويضحك حتّى تكاد عيناه تدمعان، واحد لا غير، واحد لا غير. لمسه وضمّه وخضّه، أحسّ أنّه من الفرح في غاية حتّى أنّه كان يمكن أن يضربه. عندما يسير جو بعد حين أمام إميل في الاستعراض، سوف يشعّ انتصاراً وسعادة، وهو يعلم أنّه صار محسوداً من قبَل كلّ حاملي لافتات العالم الآخرين. واحد لا غير، يا إلهي!

Twitter: @ketab_n

8

أسلوب مستحيل فعلاً. لاري سنايدر ليس أوّل من لاحظه. ما يدفع المرء إلى التساؤل كيف يتصرّف إميل.

ثمّة عدّاؤون يبدون كأنّهم يطيرون، وآخرون كأنّهم يرقصون، وآخرون كأنّهم يستعرضون، وبعضهم يتقدّمون وكأنّهم جالسون على أرجلهم. ثمّة من يتبدّى على هيئتهم أنّهم فقط يجْرون بأقصى سرعة نحو المكان الذي دُعوا إليه. ولا شيء من ذلك كلِّه لدى إميل.

إميل كأنّه يحفر أو ينحفر، مثل مهتاج في رعدة أو حفّار تربة. بعيداً عن القواعد الأكاديمية وأيّ عناية بالرشاقة، كان يتقدّم بكيفية ثقيلة، غير مترابطة، مشوّهة، بشكل متقطّع. لم يكن يخفي عنف جهده الذي يُقرأ على وجهه المتقبّض، الجامد، المقطّب، الملويّ دائماً بتكشيرة تضني من

Twitter: @ketab_n

يراها. قسماته مكدّرة، وكأنّ عذاباً أليماً يمزّقها، ولسانه خارج في تواتر وكأنّ له عقرباً في كلّ فردةِ حذاء. عندما يجري يبدو غائباً، في مكانٍ آخر بشكل رهيب، مركّزاً ذهنه وكأنّه ليس هنا، والحال أنّه هنا أكثر ممّن عداه، ملتمّاً بين كتفيه، على رقبته المائلة دائماً إلى الجهة نفسها، ورأسه المتهزهز دون توقّفٍ يتمايل ويتأرجح يمنةً ويسرة.

مضموم القبضتين، مدحرجاً جذعه في فوضى، كان إميل يفعل أيضاً أيّ شيء بذراعيه. لكي يدفع المرء جسده بشكل أفضل، يستعمل عادةً طرفيه العلويّين ليخفّف الساقين من وزنه: في المسافات الطويلة، تنتج أدنى حركات الرأس والذراعين مردوداً أفضل. إلّا أن إميل يفعل العكس، فهو يجري دون أن يهتمّ بذراعيه اللتين يمرّ دفعهما الإلزامي من علوّ فائق وترسمان تنقّلات عجيبة، فتكونان مرفوعتين حيناً ومرتدّتين إلى الوراء حيناً آخر، مهتزّتين أو مستسلمتين لتشوير عبثيّ، كتفاه أيضاً تهتزّان، وكذلك مرفقاه المرفوعان قليلاً وكأنّه ينوء بحِمل ثقيل. في عدْوه يعطي هيئةَ ملاكم يصارع ظلّه فيبدو جسده كلُّه آلة معطّلة، مفكّكة، مؤلمة، باستثناء تناسق رجليه اللتين

Twitter: @ketab_n

تلتهمان الميدان وتمضغانه بشراهة. باختصار لم يكن يفعل شيئاً مثل الآخرين، الذين يتصوّرون أحياناً أنّه يفعل أيّ شيء.

ولكن ليس كلّ ما في الأمر أن يجري كما يشاء، وإنّما أيضاً أن يتدرّب. غير أنّه على هذا المنوال يتدرّب.

في مسألة التدرّب هذه، يزخر العالم بالنظريات. المنهج السويديّ، المعروف بالتواتر، ويتمثّل في سلسلة من العدْو السريع تقطعها بالتناوب فترات استراحة متفاوتة الطول. منهج غرشلر[1] يوصي بالتدرّب المجزّأ، مسجّلاً بالميقَت على الميدان وبإيقاع بطيء نسبيّاً. منهج أولاندر[2] يفرض مرحلة هرولة مع تغيير السرعة، ولكن في مسلك مرن وسط بيئة طبيعية. إميل درس تلك المناهج بدقّة، وتبنّاها جميعاً الواحدة تلو الأخرى ليكثّفها في منهج واحد، منهج إميل، الذي لا يترك سوى نصيب ضئيل للتربية البدنية.

كلّ تلك التقنيات تقترح مثلاً استراحات تتخلّل العدْو

(1) فولديمار غرشلر Woldemar Gerschler (1904–1982)، مدرّب ألماني في ألعاب القوى.

(2) غوستا أولاندر Gösta Olander (1893–1972)، مدرّب سويدي في ألعاب القوى كان يلقّب بالسّاحر، رغم أنه، هو نفسه، لم يفز بأيّة بطولة.

Twitter: @ketab_n

السريع، مسيرات وسيطة مرنة يقطعها أغلبهم مشياً. أمّا إميل فلا، إذ هو يفضّل الركض بين مجهودين، مقتنعاً أنّ البنية الجسدية تعتاد هكذا الاستراحة في عزّ السباق، وحتّى مواصلة النسق المطلوب في حالة التعب الشديد.

كلّها تتّخذ لها مبدأ المحافظة على شدّة الجهد في مستوى أخفّ ممّا هو عليه في المباريات: عند الإعداد، يُستحسن توفير القوى التي سنكون بحاجة إليها أثناء المسابقة. إميل يرى العكس ويعتقد أنّه ينبغي التمرّن بأقسى ما يمكن، وتكثيف التمارين الشاقّة حتّى يبدو السباق من بعدُ أكثر سهولة.

كلّها بدت له أخيراً لا تعزّز الإرادة كثيراً بقبولها تلطيفَ العدّاءِ نسقَه عندما يرى نفسه يضعف. إميل ليس موافقاً بالمرّة. إن أحسّ بالتعب، أو لاحظ أدنى خطر إبطاء، لا يلبث أن يجدّ بالعكس في مضاعفة سرعته. حظّه، في هذا المضمار، أنّه يحبّ أن ينتابه ألمٌ. يعرف أنّه يمكن أن يعتمد على حبّه للألم ولنفسه: لن يسمح لأحدٍ بتدليكه.

هذه الطريقة في التدرّب تتيح له إنهاك خصومه بواسطة عدد من الاندفاعات السريعة المتواترة، مع الحفاظ

Twitter: @ketab_n

على قواه لختام يكون دائماً ذا قوّة كاسحة. خطواته أثناء المسابقة تتغيّر باستمرار، في إيقاعات متمازجة، تغييرات بارعة في السرعة يشكو منها بمرارة كلّ من يجري خلفه. إذ لا يستحيل عليهم فقط أن يقتفوا دون إخلالٍ خطوتَه القصيرة، غير المترابطة، وغير الموزونة والمتقطّعة التي كان إميل يزردها، ولا تُعقّد تنويعات النسق تلك فقط حياتهم بشكل فظيع، أو تثبّط عزائمهم فحسب تلك المشية الغريبة المتعبة، التي تستند إلى حركات متصلّبة كحركات إنسانٍ آليّ، لأنّها تخدعهم، ولكنّ تأرجح رأسه الدائم ومروحة ذراعيه المتواصل، يُصيبانهم فوق ذلك بالدّوار.

لا شيء أبداً، لا شيء أبداً كالآخرين، حتّى وإن كان شخصاً ككلّ الناس. صحيح أنّ ثمّة من يزعم أن التبادل الغازيّ في رئتيه غنيّ بالأوكسجين بشكل غير طبيعيّ. صحيح أنّ ثمّة من يؤكّد أن قلبه مصاب بالتضخّم، وله قُطر فوق المتوسّط ونبض أقلّ. ولكنّ لجنة فنّية طبّية، اجتمعت خصّيصاً في براغ لهذا الغرض، نفت ذلك كلّه، وأكّدت أن إميل إنسان طبيعيّ، وأنّه فقط شيوعيّ حسن، وأنّ هذا هو الذي يغيّر كلّ شيء.

Twitter: @ketab_n

باختصار لا شيء ثابتاً سوى أنّه عرف كيف يطوّع قلبه ورئتيه، ويجعلها حَريّة بجهود السرعة الأكثر تقارباً وباسترداد قواه في أسرع وقت. وبذلك يمكنه أن ينهي مسافة طويلة بإسراع نهائيّ جنونيّ لكي ينطلق جرْياً، وهو لا يكاد يلهث من التعب إلّا لماماً، بعد بضع ثوانٍ كي يأخذ بذلته الرياضية في الناحية الأخرى من الملعب– ومن الغد، إن دعت الحاجة، يعود إلى سالف نشاطه.

في يوم ما سوف نحسب أنّ إميل، بحساب التدريبات فقط، دار الأرض ثلاث مرّات. أن يدير الماكنة، ويحسّنها باستمرار وينتزع منها نتائج، ذلك هو الأهمّ ولا شكّ أنّه بسبب من ذلك، بصراحة، ليست رؤيته بالممتعة. فهو يستهين بكلّ ما تبقى. هذه الماكنة هي محرّك استثنائيّ نُسي وضعُ هيكلِ مرْكبةٍ عليه. أسلوبه لم يبلغ، وقد لا يبلغ أبداً، الكمال، ولكنّ إميل كان يعلم أنْ لا وقت لديه كي يهتمّ به: سيكون في ذلك إضاعة ساعات عديدة على حساب طاقة تحمّله وتنمية قدراته. إذن حتّى وإن كان ذلك ليس جميلاً، فإنّه يقنع بالعَدْو باعتباره أفضل ما يناسبه، وأدنى ما يتعبه، ليس إلاّ.

Twitter: @ketab_n

9

بالأسلوب أو من دونه، ها أنّ إميل صار نجماً عالميّاً. والحقّ أنّ ذلك لم يتطلّب الكثير: أوسلو، برلين، مسابقة مشتركة بين الحلفاء في هانوفر والأرقام القياسية المتتالية التي كان يحقّقها في بلده. في عام واحد، لم يعد اسمه يُكتب بأحرف صغيرة أسفل العمود ضمن الأخبار الموجَزة عن ألعاب القوى في الصحف المتخصّصة إذ حلّت محلّها صوره في الصفحة الأولى للصحافة الرياضية العالمية، ثمّ غير الرياضية.

لقد غدا ما يمكن تسميته بطلاً كبيراً. صار محتوماً. لم يعد يُعلَن عن مشاركته في مسابقة، بل يُشار ببساطة، قبل أن تجرى، إلى أنّه سيفوز فيها. كانت حظوظه في الانتصار مطلقة إلى حدّ صار معه مثبّطاً للعزائم، وأحياناً

Twitter: @ketab_n

غير مرغوب فيه لدى اتّحادات الفرق الرياضيّة. عندما يُدعى إلى هذه المسابقة أو تلك في الخارج، يصادف أن يلغى قدومُه لتفوّقه المفترض، وهو ما لا تخفيه الاتّحادات. يُفَضَّل ألّا يكون هنا، فقط لكي لا يوهِن عزائم عدّائينا، يعترف بعضها في تواضع، أو لأنّ حضوره لا يقدّم شيئاً لعدّائينا من الناحية الفنية، كما يدّعي بعضها الآخر برِياء.

حتّى الأطبّاء أدلوا بدلائهم، وهم الذين كانوا أدانوه منذ مدّة بدعوى أنّه يعدو ضدّ المنطق السليم. يهزّون رؤوسهم وهم يتكهّنون بأنّهم ينتظرون منذ سنتين أن يروه يلفظ أنفاسه في أيّ لحظة. ففي نظرهم إنّ مثل هذا الرجل الظاهرة، الذي يقتل نفسه في الواقع، لن يدوم إلّا مدة قصيرة. الأطباء يقولون ما يريدون، يعلّق إميل بهدوء، ولكنّي لا أحبّهم. لقد جُعلوا لعلاج المرضى، لا لشبّان مثلي. طبيبي هو أنا نفسي.

تلقّفت الصحافة في غبطة هذا الجدل، ورأت أنّ الموضوع من ذهب: هل يتحدّى إميل السّلك الطبّيّ؟ هل يصمد إميل؟ ألا يجري إميل أكثر من اللّازم؟ لقد بدأ على أيّة حال يخلق تعصّباً حول شخصه، ويتلقّى

Twitter: @ketab_n

مئات الرسائل في أكياس بريدية كاملة، وطلبات توقيع أو نصائح، وصوراً من أجل كلمة إهداء، وعروضاً بالزواج، كما كسب لقباً: القاطرة. كلّ شيء على ما يرام.

ومن ثمّ فليس كلّ شيء سيّئاً بالنسبة إلى النظام التشيكوسلوفاكي، الذي انتقل بعد الحرب وعملية براغ إلى الكتلة الاشتراكية، والذي بدأ يرى في إميل وسيلةَ دعايةٍ رائعةً. فهو أفضل دبلوماسيّ لديه، وأنجع سفير؛ لقد صار رياضيَّ دولة. هو من بين مَن لهم الحقّ في مقام خاصّ، وأوسمة وامتيازات، على غرار عمّال النخبة. في الحياة المدنية، يمكن لهؤلاء أن يحصلوا على فيلاّت، وميداليّات، ومناصب شرفيّة في قطاع النسيج، مثلاً، أو الصناعات المعدنية. بالنسبة إلى إميل، وهو عسكريّ، سيتمّ ذلك عبر ترقيات من رتبة إلى أخرى، فيما يبقى نشاطه مركّزاً على الرياضة. إذن سوف يُعنى به. أبقوه طبعاً في الجيش، لا سيّما أنّ ذلك يروقه، ولكن بتمكينه من ظروف إعدادٍ مُثلى، وفي الوقت نفسه، ها هو يرتقي بسرعة من مجرّد رقيب إلى ملازم أوّل في دبّابات الهجوم.

في ثكنته بميلوفيس، عُهد للملازم الأوّل الجديد

Twitter: @ketab_n

بالإشراف على تمارين المجنّدين، وهي مهمّة تؤكّد الصحافة أنّها ليست لتزجية الوقت، مبيّنةً، من أجل تزويق الأسطورة، أنّ البريد العسكريّ يحمله كلّ مساءٍ مشياً أكبرُ عدّاء في العالم. دون أن يكون في ذلك إخلال، بطبيعة الحال، بتمرينه المعتاد في ميادين متنوّعة، أحياناً في زيّ ريفيّ لأنّ إميل يعشق ذلك، مهرولاً على الثلج محتفظاً بجزمتي عدّته الثقيلتين. فلتَجْروا بهما عشرين كيلومتراً، كان يلذّ له أن ينصح، وبعدئذ، في الميدان، عند انتعالكم الأحذية الخفيفة، لا يمكنكم أن تتخيلوا كيف يُغيّر ذلك كلّ شيء. لهذه الغاية أيضاً كان، عندما يتمرّن داخل قاعة، يشدّ أثقالاً إلى كاحليه لثني الركبتين في عمليات مسترسلة.

على هذا النحو تواصلت الأمور، كان إميل في كلّ مكان، من اللقاءات الدولية- لاهاي، الجزائر العاصمة، ستوكهولم، باريس، هلسنكي حيث انتصر أخيراً على عدّاء الغابات العميقة- إلى المهرجانات الجهوية لألعاب القوى، كمهرجان زلين مثلاً، ذاتَ يونيو، حيث لمح فتاة أعجبته.

يجب أن أقول إنّها كاملة، رائعة، فارعة القوام هيفاء، ذات شعر كستنائيّ قصير، ونظرة رمادية فاتحة، وبسمة

Twitter: @ketab_n

جميلة حازمة وحلوة، زد على ذلك أنّها ترمي الرمح. استرشد إميل قليلاً فعلم شيئين، أوّلاً أنّها تُدعى دانا، وثانياً أنّها ابنة عقيدِه. وبما أنّ ابنة العقيد ورمحها قد حسّنا رقمهما الخاصّ في ميدان زلين، فقد وجد إميل في ذلك، وقد علمَ به، فرصةً مثلى. أسرع لشراء باقة أزهار وذهب ليهنّئها. تجاذبا أطراف الحديث، وبعد أيّام، عندما حطّم هو أحد أرقامه، جاء دور دانا لتهنئته.

تحادثا مرّة أخرى، وأثناء الحديث اكتشفا أنّهما مولودان في اليوم نفسه: 19 سبتمبر، وأنّ لهما نفس العمر تحديداً، مع فارق بسيط وهو أنّها تكبره بستّ ساعات. ولمّا كانا مندهشين لهذه الصدفة العجيبة، وبما أنّ إميل لا يريد أن يكتفي بذلك، قال لها بعد برهة: اسمعي، لن نخلص من هذا الوضع إذا جاء أحدنا لتهنئة الآخر في كلّ مرّة حطّم فيها رقماً. لنَ ننتهيَ من ذلك. لأنّ الأرقام، كما ترين، لديّ حدسٌ بأنّنا سنحطّم منها الكثير. وخير وسيلة ليهنّئ أحدنا الآخر دون قطع مسافة في كلّ مرّة ربّما هي أن نعيش معاً، أليس كذلك؟ ما رأيك؟

وفي انتظار أن يعرف رأيها، طار إميل بعد شهر

Twitter: @ketab_n

للمشاركة في الألعاب الأولمبيّة التي آل أمر تنظيمها في ذلك العام إلى لندن. كان القيظ قد نزل على المدينة، وفي اليوم الذي سيتسابق خلاله إميل في مسافة عشرة آلاف متر، كان الجوّ ثقيلاً، منهِكاً، طقس عاصفة لا تستطيع أن تحسم أمرها. ضبابة كثيفة مدّدت السماء وشكلت، بين الشمس والأرض، عدسة عملاقة تولّد أربعين درجةً في الظلّ.

كان إميل المرشّح الأبرز للفوز بطبيعة الحال، ولكن هناك أيضاً هاينو، الذي لا يقول شيئاً كالعادة وإن كان يفكّر بعكس ذلك. فرجل الغابات العميقة متعطّش للثأر ولا يرغب أن يترك الكلمة الأخيرة لإميل. كان إميل قد وضع خطة لهذا السباق بالتعاون مع الدكتور كنيانيكي، بعد أن رضي به مستشاراً. عندما يرى الدكتور، الجالس في المدرّجات، أنّ الوقت مناسب لتقوية السرعة، سوف يلوّح بقميص أحمر- القميص البديل لإميل الذي لم يكن يجري إلّا باللّون الأحمر، ممثلاً بلاده في الملاعب تحت لون الثورة البروليتارية الدائمة، دون أن نعلم ما إذا كان اختاره بنفسه أم لا.

Twitter: @ketab_n

انطلق إميل كالعادة بقوّته الميكانيكية، وانتظام رجل آليّ، ولكن بكيفية أكثر هدوءاً هذه المرّة ممّا كانت عليه في برلين، بينما اندفع هاينو بطريقة وحشية، وسرعان ما تقدّم عن ملاحقيه بثمانين متراً. بدا إميل غير معنيّ بالأمر، وهو يعرف تماماً ما ينبغي عليه أن يفعل، في انتظار الإشارة. ظلّ في المركز الثاني عشر، والخامس عشر طوال كامل مدّة المراقبة التي منحها لنفسه، يقود جهده في لين. ولم يدخل الحلبة إلّا في منتصف السباق، عندما أبصر القميص الأحمر يرجف خفيةً في يد الدكتور الذي وقف لحظتئذٍ في المدرّجات، فبدأ يقوّي سرعته بشدّة لا محيد عنها.

عندئذ انخرط في نسق عنيف يخالف الخطى الخفيفة لمنافسه هاينو، مدمّراً كلّ ما يعترضه. وبعد أن بات يمكن الظنّ أنّه استنفد قواه، ها أنّ إميلاً جديداً يُرى وهو ينبعث في وسط السباق، شخصاً سلبياً مفعماً بالنشاط، فائراً، قويّ العزيمة إلى حدّ بثّ الخوف. ذعرٌ في الغابات العميقة: حاول هاينو، وقد خشي وشوك انخذاله، أن يعطّل الآلة باستعادة تسيير العمليات في أنفة. ولكن إميل الذي يكره أن يرى خصومه من خلف لم يسمح

Twitter: @ketab_n

بذلك أكثر من خمسمائة متر. ولكي يمحو الشتيمة ويغسل الإهانة، أمسك بالزمام في اهتياج، حتّى بدا وجهه مرعباً لشدة ما قبّضه- فيما كان الدكتور كنيانيكي، وقد صار قائماً على مقعده، لا ينفكّ يلوّح بالقميص الأحمر في جنون، ولو أنّ ذلك ما عاد يجدي نفعاً، ويمسح به بين الحين والحين وجهه ورقبته بغير اكتراث. عدْو سريع نهائيّ، وما هي إلّا بضعة من عشرات الأمتار حتّى حطّم إميل كلّ شيء، وقضى على كلّ شيء، وكانت تلك أوّل ميدالية ذهبية لألعاب القوى التشيكية.

عند الوصول، تخيّل الجميع أنّ الشيطانيّ إميل، بعد هذا الجهد، وقد برهن على طاقة تبدو فوق طبيعية، لا يمكن إلّا أن ينهار. ولكن لا شيء من ذلك. بالعكس جعل يرتع في الملعب، ويذهب في خطى خفيفة بحثاً عن كوب من الماء، ويعود مهرولاً نحو منصّة الفائزين، ليدفع هاينو المجهَدَ دفعة ودّية فيها احترام، ثمّ ينقلب على رأسه ليقف على يديه في توازن تامّ- ويجري في هذا الوضع أمتاراً لتغيير الجوّ.

انصبّ عليه محتوى المدرّجات بعد أن اجتاز الحواجز

Twitter: @ketab_n

في زعيق، وغاص إميل في حشد مهتاج لمح في وسطه بين وجهين جذلين الدكتور كنيانيكي وهو يبكي من فرط سعادته، فرحان أكثر من الجميع. وبعد أن هدأ كلّ من حولهما، التقيا في حانة أمام قدحَي بيرة لم يأنف منها إميل، ولا الدكتور كنيانيكي.

هكذا إذن، قال له الدكتور، بدوتَ كَمَنْ يعاني صَعَراً في عنقه، كنت تقبّض وجهك اليوم أكثر ممّا في برلين. أعرف، اعترفَ إميل، هذا ما أُلام عليه دائماً. في التمارين، في المسابقة، كلّهم يقولون لي هذا. ولكني لا أستطيع أن أتصرّف بطريقة مغايرة، ليس هذا استعراضاً أتبنّاه. أقسم لك أنّ ذلك يؤلمني حقّاً، ما أفعله، إن كنت تظن أنّي لا أحبّ أن أبتسم. يمكنك أن تجرّب على كلّ حال، اقترح الدكتور بغير تركيز وهو يرفع يده لتجديد قدحه. ليس لي موهبة كافية كي أجري وأبتسم في الوقت نفسه، أقرّ إميل وهو يرفع نخبه أيضاً. سأجري بأسلوب ممتاز حينما يشرعون بالحكم على جمالِ سباقٍ وفق مقياس محدّد، كما هي الحال في التزلّج الفنّي. ولكنّي، لحدّ هذه اللّحظة، مطالَب فقط بأن أعدو بأسرع ما يمكن.

Twitter: @ketab_n

10

عودة من لندن بميدالية العشرة آلاف الذهبيّة، إذن، التي شفعها إميل بميدالية صغرى من الفضة في الخمسة آلاف متر، وحسمَ الأمر هذه المرّة. ولكنّ الحياة لا تقتصر على الألعاب الأولمبيّة، وليست كلّ الأيّام ممتعة. بعد عام كان عليه أن يجري في جهة مسقط رأسه، في ملعب أوسترافا، ضدّ ستة عشر منافساً عسكريّاً.

إلا أنّه عشيّةَ ذلك اليوم كان في غوتفالدوف ولم يلحق القطار السريع إلّا عند الحادية عشرة ليلاً. كان القطار مكتظّاً، ودامت الرحلة خمس ساعات ظلّ إميل خلالها واقفاً في ممرّ العربة، ولم يأكل غير قطع من البسكويت مع قليل من البيرة نفحه إيّاهما جنديّ في رخصة. وكان لا يزال مجهداً حينما وصل إلى أوسترافا، فنام في الترام، ومن

Twitter: @ketab_n

حسن الحظ أنْ أيقظه عند محطّة الملعب جنديّ آخر كان قد عرفه.

عندما دوّت طلقة المسدس معلنة هذه العشرة آلاف متر الجديدة، لم يكن إميل يرغب في البروز، ليس لأنّ الجمهور في المدرّجات كان قليلاً في ذلك اليوم، بل لأنّ ذلك لا يشغل فكره. لم يتدرّب عشية اليوم السابق بشكل خاصّ، كان فعلاً خائر القوى، يستعجل النهاية بحميّة. وبالرغم من أنّ الميدان كان في حال جيدة، وقد تمّ تجديده مؤخّراً بمنعرجات كبرى ساهمت كثيراً في تحقيق الأرقام، فإنّ إميل دخل السباق بآلية واحتلّ مقدّمة المجموعة منذ البداية أو يكاد، وانفصل بسرعة عن منافسيه، ومضى يبتعد باطّراد أمامهم.

كان يعدو، يعدو دون تفكير ثمّ أعلن مكبّر الصوت أنّ أوقاته الوسطيّة في الدورات الأولى تفوق أوقات هاينو. إلّا أنّ هذا الأخير، رغم هزيمته في لندن ما زال محتفظاً برقمه العالميّ. إنّ ذِكر الغابات العميقة يسرّ إميل، الذي يعتقد، وهو لا يزال يحسّ بتعب السفر، أنّه غير قادر على مواصلة النسق. ولكن بعد الكيلومتر السابع، غيّر رأيه،

Twitter: @ketab_n

إذ أحسّ بأنّ له مزيداً من القوى المدّخرة، فقرّر أن يجرّب حظّه. جرّبه وها هو، أخيراً، يحطّم الرقم العالميّ.

بطل العالم: كانت ردة الفعل فورية إذ عُيّن نقيباً ولكن المشاكل بدأت. تشاوروا في المقام العالي حيث يُنظَر إلى إميل، هذا مؤكّد، كظاهرة ملموسة للاشتراكية. ينبغي إذن أن يُحافَظ عليه، ويُقتصَد فيه وألا يُبعث كثيراً إلى الخارج. كلّما كان نادر الظهور كان أفضل. ثمّ سيكون مؤسفاً لو عنّ له فجأة، في سفرة من تلك الأسفار، أن يمرّ مثل بعضهم إلى الجانب الآخر، الجانب النّجس للقوى الإمبريالية وسيادة رأس المال. ومن ثَمّ، ما كاد إميل يدعى إلى خمسة آلاف متر عالمية بلوس أنجلس، حتّى طُلب للمثول.

أيّها الرفيق، قيل له، اللجنة العسكرية قررت أنّك، في المستقبل، لن تستطيع المشاركة في أيّ تظاهرة دون ترخيص مسبق. حسناً، قال إميل، ولكنّ هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً. فالتراخيص حتّى الآن حصلت عليها. بالضبط، لذا، أيها الرفيق، أُجيبَ، لن تحصل على التراخيص بعد اليوم. يمكنك الانصراف. ثمّ أصدرت اللّجنة بلاغاً تعلن فيه

Twitter: @ketab_n

عن هذا التدبير، متذرّعةً بأنّ دعوات كثيرة جدّاً إلى لقاءات قليلة الأهمية تُبعِد إميل عن واجباته العسكرية وتمنعه من مواصلة إتقانه الرياضي.

احتمل إميل ذلك، ولكن لم يرُقه كثيراً. لم يقل شيئاً ولكن الثابت أنّه، لاحقاً، بدأ يخسر بصورة تكاد تكون منتظمة. صار مهمِلاً، يصل في المرتبة الثالثة أو الرابعة في سباقات كان يمكن أن يفوز بها بسهولة. ليست الأمور على ما يرام، فيما يبدو، وأحياناً لا يكون حاضراً حتّى عند الانطلاق. في الصحافة الأجنبية، يتظاهرون أوّلاً بعدم الفهم. ويقولون إن إميل مريض. يتحدّثون عن جرح في القدم، وعن مرض الكزاز، وعن تسمّم في الدّم، ويتجادلون حول انتصار الأطبّاء الذين كانوا حكموا عليه. أو هم فهموا، فيما يعتقدون، ولكنّهم يعبّرون عنه بدبلوماسية: لا نريد أن نولي أهمية، يكتبون في حذر، للأصداء التي تقول إنّ إميل مرض فجأة حينما علم أنّ سفره المنتظر إلى كاليفورنيا لم يعد مرخّصاً من قبَل سلطات بلده.

ولكن ليس كلّ شيء سيّئاً على كلّ الجبهات. ذات

Twitter: @ketab_n

سبت، أعلنت الصحافة الرياضية في انشراح أكبر بشأنه: غداً، اختبار جديد لإميل. ولكن لم يكن الأمر متعلّقاً إلّا بزواجه من دانا، المحدّد لليوم التالي. وفي يوم أحدٍ خريفيّ جميل، تزوّج فعلاً، وهو في زيّه الجديد ذي شارة نقيب، ابنةَ العقيد، البطلة الأولمبيّة المقبلة في رمي الرمح. وتحت حاجز مزدوج من تلك الأسلحة إذن، أحدث موكب العرس تجمّعات كثيرة، وعطّل طويلاً حركة المرور في شوارع براغ. براغ، حيث الناس، عدا ذلك، يعيشون في خوف مميت.

Twitter: @ketab_n

11

براغ، في تلك السنوات، حيث الناس جميعاً خائفون، كامل الوقت، من كلّ الناس ومن كلّ شيء، في كلّ مكان. من أجل مصلحة الحزب العليا، القضية الكبرى يومئذٍ هي تطهير البلاد من العناصر المعادية وتفكيكها وسحقها وتصفيتها جسديّاً. الصحافة والإذاعة لا حديث لهما إلّا عن ذاك، والبوليس وأمن الدولة ينهضان به. كلّ شخص يمكن أن يجد نفسه متّهماً بكونه خائناً، جاسوساً، متآمراً، مخرّباً، إرهابيّاً أو محرّضاً، يُلصَق به حسب الأهواء ولاءٌ تروتسكيّ أو تيتويّ[1] أو صهيونيّ أو اشتراكيّ ديمقراطيّ، ويوصم بأنّه كُولاك[2] أو قوميّ بورجوازيّ.

(1) نسبة إلى الرئيس اليوغسلافي الأسبق جوزيب بروز تيتو Josip Broz Tito (1892–1980).

(2) Koulak (وهي غير Goulag) وتعني طبقة إقطاعية في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر، كانت تبسط هيمنتها على صغار المزارعين.

Twitter: @ketab_n

في أيّ وقت، قد يجد أيٌّ كان نفسَه في سجن أو معتقل، لأسباب يجهلها عموماً. وفي أغلب الأوقات لا يرمى فيه بسبب أفكاره، بل لأنّه يزعج شخصاً له قدرة على ذلك. كلّ يوم، في جهات البلاد الأربع، تصل مئات من الرسائل إلى أمن الدولة تجلب اهتمامه، بكثير من التفضل والخيال، إلى رفيق أو زميل أو جار أو قريب، يبلّغ عنه في إطار التآمر على النظام.

هكذا، أدركنا النقطة التي عشناها نحن، في شكل مختلف قليلاً، منذ أقلّ من عشر سنين. ما عاد أحدٌ يجرؤ على الحديث مع غيره أو يستمع إليه، كان الناس يهرب بعضهم من بعض باستمرار، ولم يعودوا يعرف بعضُهم بعضاً حتّى داخل أُسَرهم. كانت الصحافة مقيّدة كما لم تقيّد من قبل، والاستماع إلى الإذاعات الأجنبية، على غرار ما جرى سابقاً، يعاقَب عليه أشدّ العقاب. ولمّا كان الرعب قد استراح في الضمائر، بات الخيار بسيطاً: السكوت والاستسلام أو الانضمام إلى إظهار مشاعر التأييد المتعصّب للنظام وعبادة الرئيس غوتفالد[1]-

(1) كليمنت غوتفالد Klement Gottwald (1896-1953) أوّل رئيس لتشيكوسلوفاكيا الشيوعية.

Twitter: @ketab_n

طوق نجاة يقتضي أيضاً الانخراط في الحزب، الذي شهد تضخّماً خلال بضعة أشهر بأكثر من مليون عضو جديد، من بينهم، والحقّ يقال، إميل.

ولا يذهبنّ الظنّ بأنّ إميل انتهازيّ. أن يكون مؤمناً بفضائل الاشتراكية، فذلك أمر لا يجادَل، ولكن ما هو أقلّ قابلية للجدل هو أنّه من الصعب، والحال على ما هي عليه، أن يتصرّف بشكل مغاير. هو يعرف أنّه رهْنَ المراقبة من لدنِ المسؤولين، وأنّ في الدوائر العليا للسلطة من يجد متعة في التساؤل بشكل منطقيّ عمّا إذا كان وضعُ رياضيٍّ شعبيٍّ كبير لا يُردّ إلى الفردانية البرجوازية، لما في الشغف المرَضيّ بعدّاءٍ من تشويه للمثل الأعلى الستاخانوفي[1].

وبالرغم من أنّهم يفضّلون إخفاء إميل من باب الاحتياط، ويزعمون أنّه ليس في كامل لياقته البدنية، ومرهق وحتى مريض، فإنّه لم ييأس. وبما أنّ هاينو، الذي غادر غاباته العميقة مزمجراً، استولى من جديد على الرقم العالميّ للعشرة آلاف متر، فإن إميل عاد ليسلبه منه

(1) نسبة إلى ألكساي ستاخانوف Alekseï Stakhanov (1906–1977) منظّر البروباغندا أو الدّعاوة البروليتارية في الاتّحاد السوفييتي، وتقوم على تمجيد العامل الذي يجمع بين غزارة الإنتاج والتفاني في العمل.

Twitter: @ketab_n

بعد اثنين وخمسين يوماً، تاركاً منافسيه على مسافة بعيدة حتّى أنّ الثاني أنهى السباق متأخّراً عنه بأربع دورات. في الخمسة آلاف والعشرة آلاف، يظلّ إميل بالتأكيد أسرع رجل في العالم.

بعد ثلاثة أشهر، في فنلندة، حطّم مرّة أخرى رقمه في العشرة كيلومترات حتّى أنّ الجمهور، عند الإعلان الأوّليّ عن النتيجة، رفض تصديقها وبقي أخرسَ. وعند تأكيد الوقت، انفجرت عاصفة من الهتاف تواصلت دون ارتخاء لمدّة خمس وعشرين دقيقة. ولمّا عاد السكون، أدّى إميل دورته الشرفية الصغيرة في سرعة عدّاء أربعمائة متر، وكأنّ شيئاً لم يكن. وكعادته كلّما تلقى تهنئة، يؤكّد أنّه لا دخل له كثيراً، وأنّ الفضل يعود إلى جودة الميدان وطقس البلدان الشمالية الأمثل. وعلى أيّة حال، يقول مؤكّداً، ليس للمآثر الفردية أهميّة. ما يُحسب له حساب هو جلب القوى الكادحة إلى الملاعب. هذا هو المهمّ. طبعاً، إميل، طبعاً، هذه الفكرة القويّة تشرّفك.

باختصار، كان يواصل الفوز بشكل يكاد يكون دائماً، تحت المطر، تحت الثلج، تحت ريح صَقيعيّة، كان يتركهم

Twitter: @ketab_n

جميعاً خلفه، في كلّ مكان. في كلّ مكان تقريباً. ففي تجمّعات أوروبا الشرقية التي تضم اتّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والبلدان الدائرة في فلكه، وسباقات «الرّالي» الكبرى في برلين الشرقية، وبوخارست ووارشو، أو عندما يذهب للتمرّن في القرم، هنا، بطبيعة الحال، لا يرون مانعاً في السّماح له بمغاردة براغ. في المقابل، عندما يكون مدعوّاً إلى مكان آخر في العالم الذي ينعت بالحُرّ، والمقصود أنّه خاضع لسلطة رأس المال، وهو ما يحدث في أغلب الأوقات لأنّه مطلوب في كلّ مكان، فلا سبيل إلى ذلك. ثمّ إنّه ليس هو الذي يجيب بالرفض، بل الاتّحاد الرياضيّ الذي يعود إليه. وحتّى هذا الأخير، تماشياً مع الحرب الباردة، كان من النادر أن يردّ.

حتّى سباق «لومانيتيه»[1] بباريس، الذي له ضمانات قويّة على المستوى الإيديولوجي ويستقدم أفضل رياضيي

(1) L'Humanité (أي الإنسانية) جريدة الاشتراكيين الفرنسيين عند تأسيسها عام 1904 على يد جان جوريس، ثمّ ناطقة باسم الحزب الشيوعي الفرنسي من 1920 إلى 1994، وقد دأبت كلّ عام على تنظيم تظاهرات فنية ورياضية. والفرنسيون ينادونها بالشطر الأول من عنوانها «لوما» L'Huma .

Twitter: @ketab_n

الكتلة الاشتراكية، حتّى إلى هناك لم يتركوه يذهب. ذلك أنّهم يرتابون، ولهم في ذلك أعذار. لنأخذ مثلاً المدعوّ باسيغال، وهو طالب تشيكوسلوفاكيّ شابّ، وعدّاء ممتاز في المسافات المتوسّطة، تركوه يسافر للعدْو في سباق «لوما». والنتيجة أن خطرت بباله فكرة عدم العودة إلى براغ، والبقاء في باريس وطلب لست أدري أيّ لجوء سياسيّ أو شبْه سياسيّ. سابقة مكدِّرة جدّاً. استياء حادّ في الاتّحاد الرياضيّ ثمّ في الدوائر العليا. ولكن في النهاية، كان من الأفضل دون ريبٍ ردّ فعل هادئ، واتّخاذ إجراءات وانتداب فنّيّين لأنّ هذا الشابّ باسيغال، ريثما يحصل على بطاقة إقامة وينخرط في نادي راسينغ فرنسا، سوف يُنسى سريعاً ولن يرد له ذِكر أبداً.

لا ينبغي تحديداً أن تحصل هذه الأمور المزعجة مع إميل، لذا كان يُعتنى به عن قرب، ويُخرَجُ من ملاذه أحياناً لإظهاره، وعرضه على الجمهور في إخراج يبلغ حدّ تنظيم ألعاب خاصّة به وحده دون منافسين. ففي يوم الجيش التشيكوسلوفاكي، وأمام خمسين ألف شخص بملعب ستراكوف العسكريّ، جيء به للعدْو وحده خلال فترة

Twitter: @ketab_n

استراحة نهائيّ دورة في كرة القدم. وسرعان ما اختفى بعدها.

يُخفونه إذن، فيصمت، ثمّ لا يُسمع عنه خبر إطلاقاً. في تلك الأوقات، يبقى صامتاً وكتوماً، ويبدو أنّه ما عاد يمارس العدْو حتّى أنّ الناس في الخارج يتيهون في التخمين. ماذا يفعل إذن، ماذا حلّ به. هل سيُسمح له ذات يوم بمغادرة البلاد خارج المسابقات الرسمية. هل يُعِدّ في الخفاء أرقاماً قياسية. هل يختفي لأسباب نجهلها. ألا يزال مريضاً، هل انتهى. لغز. رائع هو اللّغز على الدّوام.

كلّ ذلك يدوم برهة ثم، تباعاً، وكأنّه انبجس من مكان غير معلوم، يحطّم إميل رقمين قياسيّين عالميّين جديدين: رقم العشرين كيلومتراً، ورقم السباق ضدّ الساعة. وأصبح أوّل إنسان في تاريخ العالَم يجري أكثر من عشرين كيلومتراً في ساعة. وأثناء هذه المأثرة التي عُدّت في حينها أسطورية، كان أسرع كيلومتر قطعه هو آخر العشرين، بذخ يشهد أنّه لا يزال لديه قوى كامنة، وأنّه قادر أن يحقّق المزيد. هذه النتيجة القياسية العجيبة لن يكون بوسع

Twitter: @ketab_n

أيٍّ كان أن يعادلها عمّا قريب، كانوا يقولون في انتشاء. بهذا يفيض إميل عن الإطار البشريّ، ويدفع إلى الوراء معايير الإمكانات الجسدية، ويغدو متمنّعاً على الجميع، فلا أحد استطاع أن يمضيَ أبعد من ذلك. ولمّا كان هذان الرقمان ملكاً للخالد هاينو، فلا تسَلْ عن الجوّ في الغابات العميقة. كانوا يتحدّثون عن الانحدار والزوال، ولكنّهم باتوا يفهمون: كان إميل يُعدّ العدّة لمسافات لم يجرّبها حتّى تلك الساعة.

في تلك الأثناء، لم يسبق قطّ أن مضوا بعيداً في مسرحة القضايا السياسية. استعراض ضخم من إنتاج أمن الدولة، بمساهمة فنّية من المستشارين السوفييت في المسرحة، مثول رائع للمتّهمين، ديكور وألبسة أنيقة، جمهور من الدرجة الأولى، أدوار محفوظة بإتقان من طرف الجميع- قضاةً، نوّاب حقّ عامّ، محامين ومتّهمين-، كتيّب إخراج دقيق. تصعيد دراميّ ممتاز حتّى رنين صنج الحكم، إعدامات بالشنق بالجملة، تصفيق حارّ، عدّة دعوات لمعاودة الظهور على الخشبة، طول العمر للرئيس غوتفالد.

عندئذ خطر ببال صحافيّ أجنبيّ، مبعوث خاصّ

Twitter: @ketab_n

ليوميّة رياضية، أن يُجري حديثاً مع إميل. بكلّ تأكيد، ليس هناك أيّ مشكل. ولكن للتمكّن من لقائه، ينبغي أوّلاً الحصول على ترخيص الرّائد الواقع هو تحت أمرته، ثمّ موافقة نقابة الصحافة ثمّ موافقة وزارة الإعلام. ما يمثّل كمية كبيرة من اللقاءات المسبقة، واستجوابات، واستمارات لتعميرها في عدة نظائر، وتواقيع وأختام. وأخيراً وصل المبعوث الخاصّ منهكاً إلى بيت إميل، في 8 شارع بوجكوفني، في عمارة حديثة جنب مكتب البريد الأكبر. ضغط على الجرس فإذا دانا هي التي تفتح الباب مبتسمة، في لباس بسيط من تنّورة زرقاء وصدرة بنّيّة.

إميل للأسف ليس هنا، قالت معتذرة، كان يمكن أن يفرح بقدومك. ذلك أنّه مضطرّ إلى أن يتدرّب بجلَد كلّ ظهيرة وهو مشغول في هذا الوقت. ينبغي أن يُعِدّ رحلته إلى كييف حيث سيواجه بطلاً سوفييتيّاً واعداً اسمه نيسيفور بوبوف. ولكن لا عليك، عُد هذا المساء وسوف تقابله. في انتظار ذلك، قالت، تفضّل بالدخول وسأريك البيت ثمّ نتناول الشاي. بكلّ سرور، قال المبعوث الخاصّ مأخوذاً.

كان البيت عبارة عن غرفتين واسعتين حسنتي

Twitter: @ketab_n

الزخرفة: قيثارة دانا معلّقة على الجدار وسط اللّوحات، والرايات الصغيرة، والأرفف المليئة بالكتب والتّحف، والسّجاجيد، وصورة شمسية مؤطّرة لجوزيف ستالين، وأخرى لكليمنت غوتفالد، ومصباح في شكل خريطة لنصفَي الأرض ومذياع كبير. الغرفتان اللّتان يمدّ عمقَهما مطبخ بهيّ تُفتتحان بردهة عريضة يمكن أن نتملّى فيها الآلات التي يستعملها إميل كلّ صباح في تليين بدنه، من بينها سلّم عموديّ مُثْبَت وسط ميداليات عديدة ومغانم رمزية. والرّماح، أشارت دانا. رماحي.

البيت لا بأس به ولكن دانا ليست وحدها. إذ هي تُؤوي إحدى صديقاتها المقرّبات، معلّمة مرحة بمدرسة التدرّب على الأعمال المنزلية[1] وهي امرأة في غاية التيّقظ، ودود، حسنة الالتفات لا تفارقها حتّى عند إعداد الشاي. وبينما كان الجميع منهمكين في تناول الشاي جعلت دانا تروي حياتها اليوميّة. والحقّ إنّها بسيطة، إنّهما يعيشان عيشة بسيطة. هي تعمل أمينة محفوظات بالمجلّة الرياضية

(1) Ecole ménagère مدرسة لتعليم النساء الطبخ ونسج الصوف والحياكة والتطريز.

Twitter: @ketab_n

«راش»، ما يشغل أيّامها بينما يكون إميل يؤدي وظيفته كضابط في الوزارة. وما تبقّى لهما من وقت، يمضيانه هي في رمي الرمح وهو في قطع كيلومتراتِ تمرينِه اليوميّ. رائع، قال المبعوث الخاصّ، ولكن لكما فسحة ترويح عن النفس، في ما أعتقد.

بكلّ تأكيد، أجابته دانا. أوّلاً لا بدّ أن أعلمك أن إميل يردّ على رسائله بنفسه، وهذا يأخذ منه وقتاً طويلاً. ثمّ، بطبيعة الحال توجد المطالعة، قالت وهي تشير إلى الأرفف. أجل، إميل يطالع كثيراً. ثمّ إنّهما يخرجان أحياناً في المساء، العروض وما إلى ذلك. وعندما يبقيان في البيت، يستمعان للموسيقى أو يعزفانها: إميل يملك صوتَ باريتون[1] جهيراً ويجد متعة في أداء ألحان فولكلورية قومية عتيقة في آخر النّهار- فيما كانت دانا ترافقه بالقيثارة، قالت وهي تشير إلى آلتها. جميل، قال المبعوث الخاصّ متحمّساً، متناسياً ما كان يعتقد أنّه قرأه عن طاقات إميل الصوتية. بعدها، عند حلول المساء، يحرص إميل، وهو يشرب كأساً من نبيذ مورافيا، على أن يطبخ بنفسه، ما الحيلة، هو يعشق

(1) Baryton صوت جهير بين الصدح الأعلى ténor والخفيض basse .

Twitter: @ketab_n

ذلك. كم أتفهّمه، انتشى المبعوث الخاصّ وهو يطرد من ذهنه الإقرار الأخير لبطاقات تموين الخبز والبطاطا والدّقيق. أخبريني، هل هو في لياقة بدنية جيّدة هذه الأيّام؟

آه، قالت دانا، سوف يُفيدك بالمزيد هذا المساء ولكنّ الواقع أبعد ما يكون في الوقت الحاضر. ذلك أنّه كان مريضاً، لو تدري، خُناق حادّ اضطرّه إلى التوقّف عن التمارين. إلّا أنّه بدأ يتعافى رويداً رويداً، وهو الذي يقرّر، أنت تعرف أنّه مدرّب نفسِه. طبعاً، أردف المبعوث الخاصّ، وماذا ينوي أن يفعل في الألعاب الأولمبيّة القادمة؟ في الحقيقة بالنسبة إلى هلسنكي، أجابت دانا، لا يزال متردّداً. إمّا أن يتسابق في الخمسة آلاف والعشرة آلاف، وإمّا في العشرة آلاف والماراثون. ولكن فيما بيننا، إميل بدأ حقّاً يضجر من مجده، لو تدري، هو يفكّر خاصّةً في من يَخلفه. لا شكّ أنّك سمعت عن إيفان أولبرغر وستانيسلاس يونفيرث. أعرف هذين الاسمين، أومأ المبعوث الخاصّ.

سنرى في نهاية الأمر، لخّصت دانا. الثابت أنّنا، بعد

Twitter: @ketab_n

الألعاب الأولمبيّة، سنقبل على إصلاح البيت قليلاً. فهو بحاجة إلى ذلك، ومن حسن الحظّ أنّ إميل يجيد كلّ شيء. هذا أيضاً، يعشقه. هو ينوي إعادة طَلْيه كلّه، وضع الورق الملصق، إصلاح الدّشّ وإعادة تنجيد الأرائك. المشكلة، أنّه يهوى كثيراً الأعمال اليدوية، قالت دانا متظاهرة بالتذمّر وهي تبتسم، وأنّه يميل إلى توسيخ البيت، يضع أيّ شيء في أيّ مكان، لقد أتلف بعض بسُطنا، ولكن ما الحيلة. هو يحبّ ذلك. آه، أشفق المبعوث الخاصّ. ولكن عُد بعد قليل، ختمت دانا حديثها وهي تنهض، سيفيدك بالمزيد.

عندما عاد المبعوث الخاصّ في المساء، فتحت له المدرّسة المرحة فيما كانت دانا، في العتمة خلفها، تقول إنّهما متأسّفتان لأنّ إميل نام. قلت لك إنّه مرهق جدّاً. أفهم ذلك، قال المبعوث الخاصّ في تأثّر، بلّغاه سلامي. وبعد انصرافه انتظرتا قليلاً، ثمّ التفتت دانا إلى صديقتها. هاه، قالت، هل كان الأمر على ما يرام؟ هل قلتُ ما ينبغي قوله؟ أزالت المرأة الأخرى قناع المدرّسة ورفيقة السّكن، وخلعت تنكّرها البشوش واتّجهت لفتح خزانة، فضغطت على زرّ إيقاف آلة تسجيل، وأخرجت منها شريط الصّوت

Twitter: @ketab_n

فوضعته في ظرف، ثمّ في جيب معطفها، فلبسته بجفاء دون أن تجيب. قالت لها فقط، سأرفع تقريري، أيّتها الرفيقة. سوف تعلمين إذا لزم الأمر. عندما خرجت، توقّفت أمام الباب سيّارة تاترابلان تي 600 زرقاء داكنة، ركبتها فانطلقت السيّارة نحو بناية أمن الدولة.

Twitter: @ketab_n

12

ألعاب هلسنكي تبدأ يوم الثلاثاء، ولكن إميل ليس على أحسن ما يرام. كان متعباً وهو في سنّ الثلاثين، لعلّه كان مجُهداً من تواتر خروجه من المشهد وعودته القويّة. جذعه مجوّف، خدّاه منخسفان، عيناه غائرتان في محجريهما، لم تعهده زوجته في مثل هذا النحول، كان يوم أحدٍ وكانت حاله سيّئة. عاد من مسافته اليومية ذات العشرين كيلومتراً المقسّمة إلى مراحل طويلة من الإسراع القويّ يتصبّب عرقاً، ولكن دون أن ينقطع نفَسُه، ثمّ أعدّ حقائبه. ومن الغد، سافر إلى فنلندة مع دانا التي ترافقه بصفتها المزدوجة كلاعبة قوى وكزوجة لاعب قوى، تحيط به حفنة ضبّاط ضخام، عمالقة خُرس في سترات حمراء ذوو نظر عنيد لا يفارقونه أبداً، خصوصاً في الخارج.

Twitter: @ketab_n

هلسنكي، الطقس نديّ، السماء واطئة، غطاء سحاب راكد، تعرّجات الريح، ووابل أمطار متقطّعة. الرطوبة تأتي من كلّ مكان، من السماء، ولكن أيضاً من البحيرات التي لا يحصيها عدّ ومن الأودية، والبحار التي تنفذ إلى المدينة عبر ألف منعطف. ولكنّ الهواءَ منعشٌ واللّيلَ القصيرَ، تحت خطّ العرض هذا، يصادف وقت النوم: راحة تامّة. وبدل أن يكتفي إميل بسباقين في المسافات الطويلة، فاجأ الجميع باعتزامه المشاركة في ثلاثة: خمسة آلاف متر، عشرة آلاف متر، والماراثون.

لم يَرُقْ هذا القرار الجميعَ وخاصّةً المحترفين، حتّى من البلدان الشقيقة. اللجنة الأولمبيّة السوفييتية أعربت بلسان أمينها العامّ عن ارتيابها، ما يعني انتقاداً وبالتالي شجباً. لا أحد، صرّح يقول، يستطيع تحقيق أرقام جيّدة في ثلاثة سباقات في غاية العسر وفي فواصل زمنية في غاية التقارب، حتّى ذلك الذي لا يضاهى بافو نورمي. تصريح لم يُعره إميل اهتماماً وإن أعطاه فكرة: بما أنّه شغوف بالطرائف المحليّة، فسوف يذهب لزيارة بافو نورمي.

كان نورمي قبله، أي منذ ربع قرن، أسرع عدّاء في كلّ

Twitter: @ketab_n

الأزمنة. لُقّب بالفنلنديّ الطائر، وهو الذي ابتكر التدرب بالميقَت، الذي كان لا يتخلّى عنه عند العدْو، ولا عند الأكل، ولا عند النوم. صار غنيّاً، بعد أن فتح في هلسنكي متجر عِقادة. صار المحلّ مزاراً يحجّ إليه لاعبو القوى من كلّ بلد يتدافعون ليحوزوا شرف مصافحته. أمّا هو، ودون أن ينبس بكلمة، فكان يكتفي بتركيز النظر في عيونهم وبيعهم أقمصة فنلندية بأسعار خيالية أو ربطات عنق من الحرير لا حاجة لهم بها بأثمان باهظة. بعد أن اشترى إميل قميصاً كالآخرين، لبسه بعد استحمامه بضع ساعات –هو جميل ولكنّه صغير الحجم، خشن، يخزه قليلاً– ثمّ خلعه ليرتدي قميص سباقاته الأحمر، الحامل على ظَهَارته رقم 903، وانطلق لسباق العشرة آلاف متر.

عند ربع المسافة، أمسك بزمام الأمور ولم يتخلّ عنها. في منتصف المسار أمعن في السرعة ثمّ جعل يحطّم النّسق في تواتر على طريقته: انطلاق عنيف في الخطّ المقابل ومنعرج الوصول، مخفّضاً سرعته أمام المدرّجات كأنّه يريد أن يترك فسحة من الوقت كي يُعجَب به المتفرّجون، ثمّ انطلاق سريع من جديد. كان بإمكان الآخرين أن يقتفوا أثره

Twitter: @ketab_n

لو كان له خطوٌ منتظم غير أنّ تلك الهجمات المتكرّرة، وتلك الكسور التي لا تنتهي خبّلتهم، وأرهقتهم وأوهت عزائمهم: في كلّ مرّة تُنذَر قلوبُهم وأرجلُهم بعنف، ويصعد الدم إلى أصداغهم، وفي هذا بأسٌ عليهم شديد، ولكنّ ذلك لا يعنيه إذ فاز: ميدالية ذهبية.

بعد ثلاثة أيّام، أعاد ارتداء قميصه للخمسة آلاف متر وانطلق السباق من جديد. ومثلما أعلم دانا وعلى عكس ما خامر الأذهان، لم يكن إميل حقّاً في لياقة بدنية جيّدة. لم يراوده أمل النصر في هذا السباق الذي لا يمثّل مقاسَه المفضّل، كان يريد فقط ألّا يصل الرابعَ، ولا يطلب أكثر من ذلك. رابع، سيكون أمراً يرثى له. كلاّ، مركز صغير في المرتبة الثالثة سيكون مناسباً جدّاً بالنسبة إليه. ولكن الأمر فوق طاقته: بعنفٍ ولو بطريقة منهجية، مشوّراً بيديه، مكشّراً بخبثٍ كأمضى ما يكون، استطاع مرّة أخرى أن يكسر نسق منافسيه، وأن يدوّخهم، ويشوّش انتباههم، ويشتّت صفوفهم. دفعهم إلى الاختناق الواحد بعد الآخر ليجعلهم يفقدون حتّى معنى السباق وطاقاتهم. وما دامت الفرصة سانحة، عندما ألفى نفسه في المرتبة الثالثة

Twitter: @ketab_n

كما تمنّى، ولم يعد يرى أمامه غير اثنين من دُبرٍ، وهو ما يثير حفيظته قليلاً في كلّ مرّة، أعطى دفعة صغيرة أخرى كان قد خبّأها جانباً، فتجاوزهما وانتصر: ميدالية ذهبية.

وبعد أربعة أيّام، لبس إميل قميصه الأحمر من جديد ليشارك في سباق الماراثون. اعترض مدرّبوه الرسميّون على ذلك ولكنّه لم يكن يقيم وزناً للمدربين والأطبّاء، والمدلّكين، والوكلاء، وأخصّائيّي الحِمية أو أخصّائيّي الإعداد البدنيّ، ولكلّ تلك الحاشية التي لا يحتاج إليها. ومضى.

الماراثون، كلّ واحد يعلم ما هو منذ أن قام الجنرال ملتياديس، وقد سرّه انتصاره على العدُوّ في حقل من الشَّمار، بإرسال مبعوثه فيليبديس ليخبر أثينا بما وقع في أسرع وقت ممكن. فجرى تحت شمس لاهبة أربعين كيلومتراً ليموت عند وصوله من شدّة التعب. نعرف أيضاً أنّه بعد ألفَي عام عُمِدَ إلى تمديد تلك المسافة رسميّاً إلى اثنين وأربعين كيلومتراً ومائة وخمسة وتسعين متراً، أي المسافة التي تفصل «غريت بارك» بوندسور عن «وايت سيتي ستاديوم» بلندن. نعرف أنّه مُجهِد بشكل بغيض،

Twitter: @ketab_n

وعلى الأقلّ يمكن أن نتصوّره كذلك، ونعرف أنّ إميل لم يجرِ هذه المسافة حتّى تلك اللحظة.

ساهمَ إذن. وكان الناس يستعدّون للتمتّع في شماتة بالمشهد الذي يقدّمه عادةً وهو يلوي وجهه، ويعذّب هيكله العظميّ، ويبدو قاسياً على نفسه في كلّ خطوة. ولكن لا شيء من ذلك. الرجل ذو القسمات التي عاث فيها ألمٌ رهيب، هو إميل المضمار. أمّا إميل الماراثون، فإنّه يعدو في حالة صفاء تامّ، دون أيّ ألمٍ ظاهر. في منتصف السباق، هناك حيث يرتدّ المتنافسون المستاؤون غالباً على أعقابهم، مثل ذينك السويدي والإنكليزي اللّذين رافقاه حتّى مسافة متقدّمة وقد ابيضّ لساناهما تعباً، فالتفت إليهما مبتسماً: حسناً، قال لهما، من اللّطف أنّكما رافقتماني ولكن، هنا، سأترككما. لا بدّ أن أذهب في سبيلي.

تركهما وواصل وحيداً، منتشياً باسترخائه. في خطوٍ منتظمٍ وبوجهٍ مطمئن، كان إميل يردّ بإشارات مقتضبة على صيحات جمهور احتشد في طريقه، ويتبادل بعض النوادر مع ركّاب سيّارات تقفو الكوكبة، ويغمز بعينه لمن يَعجبون لتفوقه الصّارخ. كانت أوّل مرّة يبتسم فيها وهو

Twitter: @ketab_n

يعدو، فيفترّ فمه عن أسنانه الكبيرة، ويتطلّع إلى المناظر الطبيعية. لم يبق إلّا أن يوقّع للمعجبين عند مروره، أو يصرّح بانطباعاته عن الريف الفنلندي المحبّب، ديكور بهيج من غابات التّنّوب وحقول الشعير، مَحاصب بُنّية وأشجار بتيولا، وغدران تلمع تحت الشمس.

إلا أنّه أحسّ قبل الوصول بسبعة كيلومترات بنوع من الضيق: فبما أنّ العرق جعل قميصه ملتصقاً بصدره، اضطرّ أن يرفعه إلى أعلى ويواصل منشرحاً، والجذع منه نصف عارٍ. ولمّا أدرك أنّ الملعب الأولمبيّ قريب، رأى من واجبه أن يتثبّت ما إذا كانت طريقته التعبيرية لا تزال جاهزة. بدأ عندئذ يكشّر حتّى يكون واثقاً من أنّهم سيعرفونه، ولكن بمقدار ضئيل فقط، وليس الاستعراض الكلاسيكيّ الكبير، لا شيء ممّا يماثل «نمرته» في المضمار. فقط مجموعة تكشيرات بسيطة لن ينمّيها إلّا قبل الملعب، حيث تقوم لديه مقامَ جوازِ سفر، وتسمح للجمهور السعيد بلقائه كالعادة بأن يتعرّف عليه فور دخوله. أُعلن عن قدومه بنفير أبواق، فدخل طلقاً كالعين، مانحاً اندفاعة سريعة ختامية غير ضرورية أرضت الجميع، وها أنّه يفوز بقصب

Twitter: @ketab_n

السبق: ميدالية ذهبية.

سيقول المغرضون إنّ إميل لم يفز بالماراثون: قام فقط ببعض حصصه التدريبية القديمة. هذا الرجل الملتوي، صورة الألم بالذّات، قد حوّل امتحان المأساة والعذاب الأكبر إلى نزهة. تلاعب به: وَهَنُ الجنديّ الذي يخرّ على خطّ الواجب المؤدّى، العرَق والدموع، المحفّة والممرّضون، الكرب وتوابعه، كلّ ذلك، بالنسبة إليه: تُرّهات. أخطأ المغرضون. لقد عاش إميل الويل كالآخرين ولكنّه لم يُبدِ من ذلك شيئاً، فهو كتوم حتّى وإن كانت بسمته، وهو يجتاز الخطّ، هي بسمة من يُرَدّ إلى الحياة من جديد. بعد اجتياز ذلك الخطّ، وهو مقطوع الأنفاس بالقدر اللّازم، أعلن، وهو لا يُرعي حاملي المحفّات نظرة، أن لا، ليس متعباً كثيراً، فقط برأسه وجع وأنّ ذلك سيزول.

مخافة التكرار، وحرصاً على تجنيب القارئ الملل، خيّرنا ألّا نصف استقبال صَولتَيْ إميل السابقتين في هلسنكي: تهاليل وهتافات متنوعة، فيض حماس، عاصفة من التصفيق. ولكن هنا، ثلاث ميداليات ذهبية حصدها شخص واحد في عشرة أيّام، لا نظنّ أننا رأينا شيئاً من

Twitter: @ketab_n

هذا القبيل: مائة ألف متفرّج واقفون لا يتعجّبون فقط ممّا يرون، وإنما أيضاً من الصخب الذي يمكن أن يُحْدِثوه عند رؤيته.

Twitter: @ketab_n

13

عاد إميل إلى براغ في إهاب بطلٍ وطنيّ، فاستُقبل استقبال المنتصر. تهانٍ رسمية في ملعب الجيش، واستعراض في سيّارة أمام جماهير غفيرة متراصّة في الشوارع، وترقية من رتبة نقيب إلى رتبة رائد، وتدخُّل الحكومة لدى الرئيس غوتفالد لمنح إميل وسام الجمهورية. وفي الأشهر التالية، عرضوه من مصنع إلى آخر حتّى يرى الناس أنّه حقيقيّ، أنّه موجود حقّاً، وأنّه لم يُبتدع، وبالأحرى بلى، أنّ الشيوعية الماضية قُدُماً ابتدعته.

لم تبتدع ذلك فقط: إذ أقيمت في الوقت نفسه محاكمات جديدة، في إخراجٍ لم يسبق له مثيل، ضدّ أربعة عشر مسؤولاً كانوا قبل ستّة أشهر في أعلى دوائر الدولة، أمناء عامّين للحزب يقظي الضمير ومحترمين، وزراء، وزراء

Twitter: @ketab_n

مساعدين أو رؤساء خلايا. لقد ارتأى المستشارون السوفييت أنّ من الأصلح أن تقع أخيراً وبشكل مفاجئ إماطة اللثام عن هؤلاء الأربعة عشر، وكانوا يجدون متعة في التأكيد على أنّ من بينهم أحد عشر يهوديّاً، بوصفهم متآمرين، خونة، جواسيس، تروتسكيّين- تيتّيين- صهاينة، قوميّين بورجوازيّين، خدم الإمبريالية، أعداء الشعب التشيكوسلوفاكي، ونظام الديمقراطية الشعبية والاشتراكية. كانوا يمارسون ضدّهم ضغوطاً بدنية ونفسيّة بلا مراعاة، إلى أن يذعنوا بالإقرار بجرائمهم، وتحديد ماهيّتها، وتبنّيها، وحتّى توسّل العقاب كي يُكفّ عن تعذيبهم: عندئذ، يُشنَق أغلبهم، ويُسجَن القليل المتبقّي ويُنقَل بعض المحظوظين إلى مناجم اليورانيوم. بما يعني، يشرحون لك عن طيب خاطر، أنّ الشيوعية الماضية قُدُماً تقيم الدليل فعلاً على تفوّقها: هي لا تُنتج كبار الأبطال فحسب، بل تكشف أيضاً عن كبار الخونة. إبّان هذا المناخ الساخن، وفيما كانت الحكومة الأمريكية تلحّ في دعوة إميل مع دانا إلى التباري في ملاعب الولايات المتحدة، تمّ استدعاؤه.

Twitter: @ketab_n

أيّها الرفيق، قالوا له وهم يناولونه ورقةً، من نافلة القول إنّك سترفض هذه الدعوة، ولكن سيكون من المستحسن أن تعرب عن رأيك في هذا الموضوع. سيكون عملاً جيّداً، مثلاً، لو تقول هذا. حسناً، قال إميل، ما دمتم حريصين على ذلك. وعلى موجات إذاعة الدولة، ها هو يسخر من الاقتراح الأمريكي، مؤكداً أنّ السباقات هناك تجرى على مضامير سيرْك غير سالكة تقنيّاً، مضيفاً أنّه يكتفي بالسخرية من تلك المسابقات المضحكة والمنافية للرياضة في نهاية الأمر. حرب باردة وستار حديديّ، لا يريدون فعلاً أن يقوم إميل بجولة في مكان آخر. ثمّ جاء التأكيد بعد شهر: لن يشارك في أيّ لقاءات رياضية خارج حدود أوروبا الشرقية.

منذ هلسنكي، تساءل الناس هل كان لإميل مطلق الحرية في تنقّلاته، هل يقرّر بنفسه مسابقاته. وبعد الماراثون مباشرةً، سأله مراسل إيطالي، أمام منصّة الصحافيّين، هل بإمكانه أن يأتي للعدْو في ميلانو خلال هذا الخريف. رفع إميل رأسه، ودون أن ينطق بلفظ، وجّه إصبعه من فوق كتفه نحو أحد المرافقين الرسميّين كان يلبس سترة حمراء.

Twitter: @ketab_n

فإذا بالرجل يهزّ رأسه الكبير من اليسار إلى اليمين، دون أن يُفصح. حسناً.

بقي له أن يفعل ما يستطيع في أرض مولده، إذ لا بدّ أن يشغل نفسه. خلال اجتماع لنادي معلّمي التربية البدنية للجيش، صرّح إميل مثلاً إنّه يرغب في تحطيم رقمين عالميّين جديدين: رقمَي خمسة وعشرين وثلاثين كيلومتراً، وهما مسافتان نادراً ما تواجه فيهما المتخصّصون، وما يهمّهم منهما سوى أوقات المرور، أي مجمل الإنجازات التي يمكن تحقيقها خلال السباق نفسه. ستكون المحاولة في الملعب المفضّل لإميل، ستارا بوليسلاف، في بلدة هوستكا، شماليّ بوهيميا، حيث لا وجود للريح، مع هواء رطب وحرارة 11 درجة. وفي غد اليوم الثاني، تلك الأرقام العالمية التي حطّمها بطبيعة الحال. وأوقات المرور التي يعبث بها طبعاً. ما يجعل الأمر مملّاً نوعاً ما.

بل إنّ النقد المتخصّص فيما يبدو بدأ يملّ. كان إميل يبالغ. يفوز بإفراط. وقد ننتهي إلى عدم التعجّب من انتصاراته، والأدهى ألّا نتعجب حين لا ينتصر. وفي هذا الشأن يبدو أنّ الصحافة الرياضية بدأت تهيّئ الأرضية.

Twitter: @ketab_n

فبعد بضع سنين، في ما تتنبّأ به، لن يكون إميل سوى ذكرى. ذلك قانون الرياضة، تقول في تحسّر. وكأنّها تنتظر أن يتمّ التخلّص منه.

ذلك أنّه، منذ إنجازه الكبير في ألعاب لندن وهو في سنّ السادسة والعشرين، لم يضاهِه أحد، فإميل لا يضاهى. خلال السنوات الستّ، الألفَي يوم التي تلتها، بات هو أسرع رجل يجري على الأرض في المسافات الطويلة. إلى درجة أنّ اسم شهرته صار في عيون العالم تجسيداً للقوّة والسرعة، ذلك الاسم انخرط في الجيش الصّغير لمرادفات السرعة. اسم زاتوبيك هذا الذي لم يكن شيئاً، لم يكن سوى اسم طريف، صار ينطلق عالمياً في ثلاثة مقاطع متحرّكة وآليّة، رقصة فالس لا تعرف الرحمة من ثلاثة أوقات، حصانٌ يجري، أزيز تُرْبينة، صليلُ ساعدِ توصيلٍ آليٍّ أو صمّاماتِ أمانٍ تهتف به الكاف الختامية والزاي البدئيّة التي تفتتح العدْو السّريع: نقول «زززز» وفي الحين يتمّ الأمر بسرعة، وكأنّ ذلك الحرف الصامت معلِنٌ عن بداية السّباق. أضف أنّ تلك الماكنة شحّمها اسمٌ أوّلُ ذو سيولة: أنبوبة زيت إميل تُزوَّد مع المحرّك زاتوبيك.

Twitter: @ketab_n

بل إنّ في ذلك ما يشبه الحيف: لقد وُجِد فنّانون كبار آخرون في تاريخ العدْو. إن لم يبق لهم نفس الذِّكْر، أفلا يكون الباعث أنّ اسمهم في كلّ مرّة لا يناسب، لم يُجعل لذاك أو لا يلتصق التصاقاً وثيقاً مثل اسم إميل بهذه الرياضة- باستثناء ميمون[1] ربّما، فاسم شهرته يرنّ كما يُنفث أحدُ أسماء الريح. النتيجة، نسيناهم، ليس في الأمر من تعقيد، تلك مشكلتهم.

لعلّ ذلك الاسم إذن هو الذي صنع مجده في الأصل، وفي الأقلّ ساهم بقوّة في سبكه، يمكن أن نتساءل. نتساءل ألم يكن نسقه ونبضه اللّذان جعلاه لا يزال يخاطب الناس أجمعين وسوف يجعلان الناس يتحدّثون عنه لزمن طويل، ألم يكن هو الذي صنع الخرافة، وكتب الأسطورة- فالأسماء تستطيع أيضاً أن تحقّق، بمفردها، مآثر. ولكن لا نبالغْ. كلّ هذا جميل عدا أنّ الاسم يمكن أن نجعله يقول أو يوحي بما نريد. لو كان إميل سمسار حبوب، رسّاماً غير تشخيصيّ أو مفوّضاً سياسيّاً، لوجدوا على الأرجح

(1) ألان ميمون Alain Mimoun (1921–2013) عدّاء فرنسي من أصل جزائري، واسمه الحقيقيّ علي ميمون ولد كاشة، جمعته بزاتوبيك مباريات عديدة.

Twitter: @ketab_n

أنّ اسمه يوافق كلّ تلك المهن، دالّاً في الوقت نفسه على الإدارة العقلانية، والتجريد الغنائيّ أو البرد في الظهر. وفي كلّ مرّة سيكون ملتحماً ومسمّاه تمام الالتحام.

فيما عدا ذلك، صدر منذ نهاية العام إعلان في الصحافة يُعلِم أنّ السبّورة اللّامعة لألعاب هلسنكي معروضة للبيع. وهي عبارة عن سبعة آلاف مصباح صغير موزّعة إلى مائتي مجموعة من خمسة وثلاثين مصباحاً. ضوء آخر، جوزيف ستالين انطفأ في بداية العام التّالي والرئيس غوتفالد، القائد المحبوب الذي أصيب بنزلة برد أثناء جنازته، توفّي في براغ حال عودته من موسكو.

Twitter: @ketab_n

14

إميل مُجهَد قليلاً. يمكننا تفهّمه، فقد نكون في مثل حالهِ عن جهدٍ أقلّ. علاوة على الذهب الذي جمعه في فنلندة، صار صاحبَ ثمانية أرقام عالمية في مسافات ما فوق الخمسة آلاف متر: الستّة أميال، والعشرة أميال، والخمسة عشر ميلاً؛ والعشرة كيلومترات، والعشرون كيلومتراً، والخمسة وعشرون ثمّ الثلاثون كيلومتراً؛ دون ذكر الرقم القياسي لسباق السّاعة. عندما عاد إلى براغ في لياقة بدنية ممتازة، لم ينشط خلال الأشهر التي تلت وكأنّه يستريح من صولاته. احتُفي به في كلّ مكان، ودُشِّنَ مؤخَّراً متحف على شرفه في مسقط رأسه كوبريفنيس، وأُعِدَّ فيلم يروي قصّة حياته، فكان من حقّه أن يستردّ أنفاسه.

بعد موت ستالين وغوتفالد، ساد الظّنّ بأنّ الناس

Twitter: @ketab_n

سيتنفّسون ربّما بطريقة أفضل: بعض المؤشّرات الخفيفة تدلّ على أنّ شيئاً سيحدث من جهة السلطة التشيكوسلوفاكية حتّى وإن يكن مؤقّتاً. أحداث بسيطة، غير ذات بال، فتحت المجال. بين عشيّة وضحاها، مثلاً، ها أنّ «براس»، الجريدة الناطقة باسم النقابات، التي لا تُقرأ عادةً إلّا لصفحتها الرياضية، سمحت لنفسها بنقد مجلس التربية البدنية، معربةً عن أسفها من كونه لا يسمح للرياضيّين التشيك بالمشاركة في الخارج. وهذا شيء جديد.

وكأنّما بغايةِ تأييدِ هذه الصحيفة، إلّا إذا كانت قد كُلّفت بتهيئة الأرضية، أُعلِن عن اعتزام إميل السفر إلى البرازيل، إلى ساو باولو حيث سيشارك في السباق الكبير لعيد القدّيس سيلفستر الذي يصادف آخر يوم في السنة. ما إن حصل على تأشيرته، وعبّر عن فرحته، حتّى انغلق بشكل غامض في قاعة الاستحمام لعدّة ساعات، لا رفيق له سوى حزمة من ورق لفّ السجائر ري لاكروا[1]. هذا

(1) ري لاكروا Riz La Croix أو، في صيغة مختصرة، ريزلا Rizla: ورق للفّ السّجائر يدويّاً اخترعه عام 1867 الفرنسي ليونيد لا كروا (1832–1906) باستعمال ورق الأرزّ، ومن هنا حضور مفردة الأرزّ في تسمية هذا الورق إلى جانب اسم صانعه.

Twitter: @ketab_n

الري لاكروا، الذي كان أحد المحكوم عليهم بالسجن المؤبّد خلال محاكمات براغ الكبرى، في الوقت نفسه، يدوّن سرّاً في معتقله في روزين على ورقاته الصغيرة الهشّة تقريراً عن حالهم على أمل أن يُنقَل إلى زوجته.

من براغ إلى ساو باولو، توقّفٌ مقرّر في باريس، حيث عقد إميل في بهو مطار بورجيه ندوة صحافية قبل السفر على متن طائرة «سوبر كونستيلاّسيون». كيف يرى سباق ساو باولو؟ بصراحة سأفوز، قال ببساطة. لم أبلّغ بقائمة منافسيّ ولكن ذلك لا يهمّ ما دمت سأفوز. أيّاً كانوا، سأهزمهم جميعاً وأنا سعيد بذلك. سأجد متعة كبرى في هزمهم، أردفَ وهو يكشف عن أسنانه كما لم يكشف عنها من قبل. بكلّ بساطة. إنّه مثيرٌ للسّخط، أحياناً.

ساو باولو: في الفندق الذي ينزل به الأجانب، دفعه فضوله المعتاد إلى الإسراع حالاً نحو قاعة الاستحمام التابعة لغرفته. فتح صنبور ماء، وأخرج من جيبه حزمة أوراق ري لا كروا، ولفّ عدّة وريقات في شكل كريّات ألقاها في عمق المغسل. ذلك أنّهم حدّثوه عن قانون

Twitter: @ketab_n

كوريوليس[1] وهو يريد أن يتأكّد إن كان صحيحاً أنّ الماء، في النصف الجنوبيّ للكرة الأرضية، يدور عكس دورانه في نصفها الشماليّ قبل انسيابه في البالوعة. وها أنّ هذا صحيح، وحقّ الربّ. بُهت إميل. عندما عاد إلى البهو، حيث يتزاحم الجميع في انتظاره ومحاولة رؤيته، استجاب مبتسماً للحوارات، وطلبات توقيعه، وتآخى مع المتنافسين.

لا أحد بدا يشكّ في انتصاره أكثر منه، رغم أنّ مسألة فنّية صغيرة كانت تطرح نفسها. فهذا السباق، الذي يُخاض في الليلة الفاصلة بين سنة وأخرى تليها، يمتدّ على سبعة كيلومترات محفّرة جدّاً ولكنّ المشاركين فيه، خصوصاً، يفوقون الألفي عدّاء. فالمشكلة تقع هنا: النفاذ من هذا السّرب. أن يخلّص نفسه عاجلاً لكي لا يغمره الجمع. أن ينطلق بسرعة فيرهق نفسه في وقت مبكّر جدّاً قد يجعله يجازف بنهاية السباق، وأن يَلزَم الحذر في بدايته سيجعله

(1) أو تأثير كوريوليس، نسبة إلى الفيزيائي الفرنسي غاسبار غوستاف كوريوليس Gaspard–Gustave Coriolis (1792–1843) ويطلق على التشوّه الظاهريّ في حركة الأجسام عندما يُنظر إليها خلال الرصد من إطار مرجعيّ دورانيّ.

Twitter: @ketab_n

عرضة للغرق داخل الكتلة. حسناً، قال إميل، سنرى. في انتظار ذلك، قصد مكاتب «غازيتا إسبورتيفا»، الجريدة المنظِّمة للتظاهرة، للاسترشاد. وبالنسبة إلى الانطلاق، سأل في ضيق، هل سيتمّ كالعادة بالمسدّس، كما أتصوّر. كلاّ، قيل له، سوف تنطلقون عند آخر لحن للنشيد الوطني البرازيلي. حسناً، أخبرني، سأل إميل، أحسب أنّه يمكن العثور عليه في السوق، هذا النشيد. اشترى الأسطوانة وحفظ النشيد عن ظهر قلب. لا يمكن أن نكون واثقين من أيّ شيء تمام الوثوق.

لتجنّب الانطلاقات الخاطئة والاندفاعات المبكرة، تقرّر أداء النشيد الوطنيّ قبل طلقة المسدّس التي ستحدّد وقف آخر علامة. ولكنّ مفرقِعة طائشة أطلقها أحد السفهاء بثّت في الأذهان فوضى: ظنّاً أنّها الإشارة المرتقبة، أحدثت الفرقعة ازدحاماً ضخماً في أوج النشيد، وها أنّ الجميع ينخرطون فيه. اختار إميل منذ البداية أن يكون في مقدّمة الكوكبة أمام مليون شخص متهيّجين، وتحت شماريخ عملاقة، وفي صخب يصمّ الآذان من هتافات، وأبواق، وصفّارات إنذار وقرون، وصواريخ، ومفرقعات

Twitter: @ketab_n

تتفجر في كلّ مكان، وفرق موسيقية في الهواء الطلق تحيّي مرور العدّائين، ما يضطرّ هؤلاء إلى شقّ طريقهم وسط الشرائط والفوانيس ووميض آلات التصوير، في المسلك الضيّق الذي يتركه لهم المتفرّجون.

ولكنّ ذلك كلّه جرى بغير مشقّة قبل أن تطير القاطرة[1] التشيكية، عند النتوء الختاميّ العصيّ الصعود، وتتحوّل إلى قطار سلكيّ، وفاز طبعاً، على مسافة بعيدة من الجميع، محطّماً رقم المسافة بدقيقة. كان الانبهار بشخصه على أشُدّه مرّة أخرى، وفي المساء، كان الازدحام خلال الحفل المقام في مقرّ «غازيتا إسبورتيفا» من الضخامة ما جعل إميل يغادر المبنى من باب خلفيّ خشية الموت اختناقاً.

من الغد، هطل المطر، وأصيب إميل بزكام تحول إلى إنفلوَنزا وكان مضطرّاً أن يبقى في الفندق للراحة: كان يرفض عشر دعوات في اليوم فيما كان يؤتى إلى غرفته بمائتي كيلوغرام من الميداليات والكؤوس والتماثيل. إلّا أنّ الحماس البرازيلي أبهجه، فوعد بالعودة في العام القادم،

(1) نذكّر للفائدة بأنّ «القاطرة» هو اللّقب الذي منحه الجمهور لإميل زاتوبيك.

Twitter: @ketab_n

وفي ظنّه أنّه يمكن أن يعتمد على سلطات الإشراف: بموافقتها على هذه الرحلة، أعطى فوزه في ساو باولو تشيكوسلوفاكيا الشعبيةَ التي كانت تتمنّاها، ما يوحي بأنّ سياستها تجاهه قد تغيّرت. عاد إلى أوروبا، وقبل وصوله إلى براغ، قضّى ليلة في فندق على ضفاف السين بباريس، حيث وعد أيضاً بأنّه عائد بعد ستّة أشهر.

في انتظار ذلك، صار الرجلَ الذي ينبغي الإطاحة به، المرجعَ المطلق، المعيارَ الذهبيّ لسباق المسافات الطويلة. بل إننا يمكن أن نتساءل، راح يتطارح المعلّقون في نبرة جادّة، إن لم يكن يرتكب خطأ سيكولوجيّاً فادحاً بتحطيمه الأرقام العالمية في إيقاع غير ملول. لأنّه في النهاية، يقولون في تأفّف، سوف يجيء يوم ينوب فيه عن التعجب فضولٌ لطيف، ثمّ ينوب عن الفضول عدم مبالاة، وعندما يصبح الخارق للعادة مألوفاً، لن يكون خارقاً للعادة بالمرّة. لن يعود الناس إلى التعجّب إلّا عندما ينهزم إميل. في انتظار ذلك اليوم، حتّى وإن كان بعضهم يحبّ التخمين بأسماء العدّائين الذين يمكن أن يخلعوه عَمّا قريب، كانت أخباره كلُّها تتصدّر الصحف.

Twitter: @ketab_n

هكذا عاد بعد ستّة أشهر إلى باريس للمشاركة في سباق «لومانيتيه». استُقبل في مطار بورجيه استقبال الملوك. وهو ينزل من الـ «دي سي 6» العظيمة التي حطّت على إسفلت مَدرج بورجيه، كان يلفّ جسده في معطف غبردين رماديّ يقحم فيه رأسه من شدة البرد ويعتمر قلنسوة ذات شُرّابة لن تفارقه بعد ذلك أبداً. عندما خلعها للتحية، لوحظ أنّه حلق رأسه لأن إميل، ولا بدّ من الإقرار بهذا، بدأ يفقد شعره. ولمّا اندفع نحوه المصورون والصحافيون، أجابهم بفرنسية جيدة ولكن بنبرة أقلّ روحاً انتصاريّة مما كانت عليه قبل ستة أشهر: في رأيه، قال، كوتس[1] هو الذي سوف ينتصر عليه من الغد في ميدان سباق الخيل بفنسين. هذا الكوتس شابّ وسيم وقويّ، ينتمي إلى البحرية السوفييتية، وهو أكثر تمرّناً من إميل الذي يزعم أنّه ليس كذلك وخصوصاً، ينبغي الإقرار به أيضاً، أقلّ سنّاً.

ولكن، من الغد، لم يستطع كوتس حتّى أن يهدّد إميل.

---

(1) فلاديمير كوتس Vladimir Kuts (1927–1975) بطل أولمبي سوفييتي، فاز في ألعاب ملبورن بميداليّتين ذهبيّتين.

Twitter: @ketab_n

أمام جمهور يعدّ عشرين ألف متفرّج، تباطأ إميل كثيراً في انطلاقته، ثمّ قطع المسافة بسرعة، راكضاً بعيداً مرّة أخرى أمام الآخرين وسط سياجَين من المتفرّجين. وجد جهاز حفظ الأمن نفسه عاجزاً عن السّيطرة على الموقف، وغُزِيَ المضمار، وكان ذلك انتصاراً قاعديّاً. تساءل المعلّقون، وقد غيّروا رأيهم مرّة أخرى، ما إذا كانت الأعوام المقبلة ستخلّ بإيقاعه، فيما لاحظ كوتس نفسه أنّ إميل لم يكن في مثل هذا العنفوان قطّ. أمّا إميل، فقد قال إنّه مستعدّ للعودة بعد شهرين إلى باريس، حيث لم يدفعه فضوله هذه المرّة إلى القيام بجولة في بيغال.

في نطاق آفاق العودة تلك- وآفاق ألعاب بيرن-، أقبل على دورة تحضيريّة لعدّة أسابيع في ملعب ستارا بوليسلاف الذي يرتاح إليه دائماً. في نهاية الدّورة عقد ندوة صحافية بفندق «بالاس» حيث يقيم الصحافيّون. وإذ سئل عن ثبات لياقته، لم يُخفِ إميل اللّطيف، كما يُدعى في الغالب، أنّه يَعجب لها هو نفسُه. ولكنّي لست واهماً، قال لأوّل مرّة، أعرف أني أسير ببطء نحو انحداري. على أيّة حال لا أضع نصب عينيّ غير الرقم القياسيّ في العشرة آلاف متر.

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إلى الخمسة آلاف، لم أعد أجري بالسرعة اللازمة. أمّا الماراثون، فهو سباق لا يعجبني كثيراً: نحن نضجر خلاله فوق ما يلزم. في انتظار ذلك، سأعود إلى باريس. بالفعل، في براغ، أبدت وزارة الرياضة والثقافة موافقتها على دعوة إلى ملعب إيف دي مانوار بكولومب، تبعاً لرأي إيجابيّ من الدار المركزيّة للجيش.

ولكن في أثناء إقامته الأخيرة بفرنسا، كان إميل أدلى بحديث ليومية بلاده «سفوبودني سلوفو»، لسان تشكيلة صغيرة تدور في فلك الحزب، جُعلت للإيهام بوجود التعددية ومديرُها يتعاون مع البوليس السياسيّ. أيها الرفيق، سأله الصحافيّ، هل لك أن تقول لنا أوّلاً كيف حالك؟ مرْضية، أجاب إميل، مرْضية تماماً، ولكني أعتقد أني وصلت إلى مستوى صار فيه كلُّ تطوّرٍ شاقّاً بالنسبة إليّ. حسناً، دوّن الصحافيّ، هل لك الآن أن تعطي قرّاءنا انطباعاتك عن باريس؟ بكلّ تأكيد، قال إميل الذي كان يفكّر في شيء آخر، ولم يكن واعياً تماماً بما يفعل. هيّا بنا، قال الصحافي. إذن، باريس، ما رأيك فيها؟

بصراحة، ردّ إميل في لامبالاة، باريس، كما تعلم، ليس

Twitter: @ketab_n

فيها ما يجلب الاهتمام. بيغال، بالتأكيد، ليست سيئة. ثمّ البنات، طبعاً، بنات في غاية الجمال. نرى صوراً كثيرة في الصحف، صور أولئك البنات الرائعات. ثمّ هناك الخمر، بطبيعة الحال. ولكن أيضاً كم من محلاّت تجارية في هذا البلد، بصراحة، لم أرَ ذلك في حياتي، متاجر في كلّ مكان.

حسناً، أيها الرفيق، شكراً لك، قال الصحافيّ وهو يطوي دفتره. سأكون سعيداً بنقل آرائك الهامّة كما تستحقّ.

آراء، بعد أن كتبها ذلك الصحافيّ في جريدته، جاءت كما يلي: باريس خيّبت ظنّي، صرّح لنا زاتوبيك. باريس الأدب التافه. باريس العهر، والمجلات والكتيبات الإباحية. باريس الخاضعة حتّى قلب جهازها العصبيّ للنزعة الاتّجارية[1] والروح الرّبحية الجشعة.

والنتيجة: بعد بضعة أيّام، صدر بيان عن وزارة الخارجية الفرنسية. بعد زيارته الأخيرة لفرنسا خلال الربيع، قال البيان مستنكراً، رأى العدّاء زاتوبيك أنّ من

(1) Affairisme: نزوع للمتاجرة واستغلال العلاقات السياسية للمصالح الخاصّة دون اعتبار لأيّ قيمة أخرى.

Twitter: @ketab_n

واجبه التصريح للجريدة التشيكوسلوفاكية «سفوبودني سلوفو» بآراء في غير محلّها بخصوص تلك الرحلة. واعتباراً لتلك التصريحات المسيئة إلى أهالي باريس، قرّرت وزارة الشؤون الخارجية رفض دخول السيد زاتوبيك إلى أراضيها.

Twitter: @ketab_n

15

هذا الرفض أثار ضجّة كبرى ولكن، بما أنّ جميع الأطراف تدخّلت، استطاع إميل أن يحصل في النهاية على تأشيرته. كان من المفروض أن يعلّمه هذا الحادث الصّمت، ولكنّ الذنبَ ليس ذنبه إذا كان يملك موهبة اللّغات، إذا كان يتقن الروسية والألمانية، ويستخدم الإنكليزية والفرنسية والمجرية استخداماً صحيحاً، ويدبّر أمره بشكل مقبول في أغلب لغات أوروبا الوسطى والبلدان الإسكندنافية. آسف أحياناً لميلي إلى اللغات الأجنبية، قال يلوم نفسه، في خجل، إثر هذا الفصل. ليس مستحسناً أن نعرف منها الكثير. يجب التكلّم دائماً، والإجابة دائماً. أي نعم، يا إميل.

بعد هذه القضية، وصل إميل إلى فرنسا غاضباً نوعاً

Twitter: @ketab_n

ما، كما في برلين يوم سخر منه الملعب كلُّه. وربّما، انتقاماً لذلك، حطّم الرقم العالميّ في الخمسة آلاف في ملعب كولومب. لم يحطّمه سوى بثانية، ولكن كان الرقم الوحيد الذي ينقصه في المسافات الطويلة- ما يعني أنّه مرّ بنا من ثمانية أرقام قياسيّة عالمية إلى تسعة. ثمّ لمّا طالبه الجمهور بدورة شرفية، جرى لإرضائه أربعمائة متر زائدة، في سرعة قويّة وكأنّ ما قام به منذ حين لم يكن سوى مجهود بسيط. بعد ذلك، ورغم صلعه، اقتنى فرشاة شعر من النيلون، وهو نوع مجهول تحت سماء تشيكوسلوفاكيا. ولا شكّ أنّ ذلك كان لدانا إذ اشترى أيضاً صابوناً معطَّراً باللّوز وقلمَ شفاه من نوع «أحمر قُبلة».

ثمّ، وفي السياق نفسه، حسّن في بروكسل رقمه العالميّ في العشرة آلاف. ربّما بدا ذلك روتينيّاً، ولكنّ السلطات التشيكية شديدة الحساسية تجاه هذا الروتين، وفي حسابها المفرَد: كولومب + بروكسيل = ترقية إميل إلى رتبة مقدَّم.

لا أدري ما هو موقفكم، أمّا أنا فأرى أنّ كلّ تلك الصولات، والأرقام، والمغانم، ربّما بدأنا نشعر بأنّها جاوزت الحدّ. وتلك من محاسن الصُّدف، فها أنّ إميل سيبدأ في الانهزام.

Twitter: @ketab_n

16

كانت البداية في بودابست، في تلك العشرة آلاف متر التي تعتبر مسافته هو، لا يملكها سواه، حيث هزمه فيها شخص يدعى كوفاتش[1]. كأنّ في الأمر ما يشبه منافسة غير مشروعة: إميل الوسيم رغم أسلوبه البشع وكوفاتش الدميم، برجليه القصيرتين وجذعه المدموك الذي يعلوه قذال ضخم، ولكنّه كان يستعيض عن هيئة القزم المتعنّت بقوّة احتمال لا مثيل لها. وأيّاً كان الأمر، فتلك صفعة قويّة لإميل، لا سيّما أنّه بدأ في سياقها يخسر سلسلة من السباقات.

يخسر مرّة، ويفوز مرّة، يخسر مرّة أخرى، وينتصر من جديد وبدأ الناس يفكّرون أنّ إميل، ربّما، لم يعد كما كان.

(1) جوزيف كوفاتش József Kovács (1926–1987) عدّاء مجري فاز بميدالية فضية في أولمبياد ملبورن، وميدالية فضية ثانية في بطولة أوروبا.

Twitter: @ketab_n

ذلك ما يقوله لنفسه، بالمناسبة، فهو ليس غرّاً، ولكن منذ ذلك الوقت بدأ أولئك الذين سحقهم في الأروقة يمنّون النفس بالانتقام. ليس ثأراً مشهديّاً كصولات إميل، بالتأكيد، بل ما هو كفيل بإنعاش كبريائهم. وهكذا صاروا يخمّنون ويستبقون ويقدّرون. يبدو، فيما يقولون، أنّ إميل يرى بزوغَ خطر الانحدار بلا رجعة، وداعَ تفوّقه ونهايةَ الأمجاد. هو الذي ظنّوه غير قابل للضعف خانه جسده الذي ما عاد يقبل الجهد، بالرّغم من طاقة كبريائه وإرادته. وهذا أمر طبيعيّ، في النهاية، فلا مكان للمعجزة في هذا المجال. ينبغي أن يقبل بأنّ أثر حضوره الوحيد في ملعب من الملاعب هو سلاح صدئ، وأن دوره حان كي يحسّ بالبلبلة التي كان يُمسك بها، دون مشيئته، خصومَه.

بل إنّ ذلك سوف يتجلّى عندما يعدو في بيرن. كان ينتظر الكثير من سباق بيرن ذاك، واستعدّ له كما لم يستعدّ من قبل. حتّى ولو كان، هذه المرّة، شبهَ واثقٍ من الفوز نظراً لقيمة منافسيه، فقد بدا، في انتظار أن ينزل إلى الحلبة، قلقاً، متوتّراً، في حال أقرب إلى الكرب. يمشي محنيّاً قليلاً،

Twitter: @ketab_n

وعنقه بين كتفيه، وقلنسوته منحدرة حتّى أذنيه دونما اعتبار للأناقة. في بيرن، عندما يدعى فريق تشيكوسلوفاكيا فيما يشبه الطقوس إلى زيارة مصنع الشكولاتة، كان إميل يذهب في أدب مع الآخرين بدافع الفضول كالعادة ولكن دون أن يبدو عليه اهتمام بها. لاح تحت المطر، في معطفه المشمّع، مثل عامل بسيط ذاهب إلى العمل. بعد الزيارة، جلس جنب دانا أمام فيلم كان يعرض على الحاضرين يمجّد سويسرا بعامّة والشكولاتة بخاصة، فلم يعد، هو عملاق العدْو، سوى متفرّج غمر، متواضع مؤدّب، ينظر بلطف إلى ما يعرض كما يمكن أن ينظر إلى شيء آخر. بدا إميل فجأة، وسط زملائه الجبابرة الصناديد الغزار الشَّعر، مثل طفل وديع أو عجوز يتأسف أن كلّ هذا لم يعد يعنيه.

دفعه فضوله رغم ذلك إلى زيارة حديقة الحيوانات ببيرن حيث استمتع أخيراً برؤية القِرَدة، وهو نوع لم يُسمح له بعد بالإقامة في تشيكوسلوفاكيا. ولكن القردة بدت فظّة، حادّة الطبع، مريرة، ساخطة على الدوام لكونها أخطأت الإنسانية بربع شعرة. وهذا يستبدّ بها بداهة، ولا تفكّر إلّا فيه. وهي مستعدّة أن تدفع البشرية إلى دفع

Twitter: @ketab_n

الثمن. ولا يعني ذلك أنّ المشهد خيّب انتظار إميل، وإنّما لم يرفع معنويّاته.

حتى وإن واصل مفاجأة الجميع، فإن الحديث حوله كان يكاد يدور في الماضي. بصورة فجائية خشنة، بين عشيّة وضحاها تقريباً. حتّى وإن كان في بيرن- مضمار لامع وغابة من الأمطار-، قد ترك انطباعاً بأنّه مذهل، وسباقه متألّق، ودورته عجيبة، وقميصه الأحمر في مقدّمة المعركة ضدّ خصوم قيل إنّهم خطرون فإذا هم كأن لم يكن لهم وجود. حتّى وإن شاهد الناس في براغ- ريح قوية وطقس جليدي- الشيطانيَّ إميل يقدّم دوراً من ذخيرته التي ظنّ الجميع أنّها نفِدت. ولكن إذا كان لا يزال يفوز أحياناً، فإنّه ينهزم أكثر فأكثر. كان يرى ما حلّ به، ويتقبّله. يقرّ به. حسناً، يقول، لقد تمّ تجاوزي ولكن لا يهمّ. بل هذا أفضل في الواقع. أنا أحب العدْو، وأريد أن أواصل العدْو، العدْو كثيراً، ولكن ليس عيباً أن أرتدّ إلى عدّاء عاديّ يمكن أن يخسر.

قرّر التخلّي عن الخمسة آلاف متر، حيث ما عاد يُرى. صارت سباقاً بالغ السرعة، محجوزاً لعدّائي الميل وحيث المتخصّصون مثله في الاحتمال ما عاد لهم شيء يسعون

Twitter: @ketab_n

إليه. سيكتفي إذن بالعشرة آلاف وبالمسافات الطويلة. يودّ مثلاً، رغم الضجر الذي يولّده في نفسه هذا الاختبار، أن يتدربّ على الماراثون استعداداً للألعاب الأولمبية المقبلة، في ملبورن.

في انتظار ملبورن، كان إميل يرغب في العودة إلى البرازيل مثلما وعد، ولكن، خلال العام الماضي، طلب منه صحافي آخر من «سفوبودني سلوفو» فور عودته إجراء حديث قصير. نظر إليه إميل نظرة ارتياب، بعد أن لذعته حكاية باريس. أيّها الرفيق، قال له الصحافيّ، قرّاؤنا يهمّهم كثيراً أن يعرفوا انطباعاتك عن البرازيل.

اسمع، استهلّ إميل قائلاً، أودّ أن أكون في غاية الوضوح. البرازيل في غاية الروعة. أؤكّد، هه، إنّها مُدهشة حقّاً. من شتّى الأوجه. سأعود إليها بكلّ سرور. هل أفهَمتُ؟

النتيجة: بلاغ عن الناطق باسم وزارة الخارجية البرازيلية. رفْض تأشيرة إميل إلى البرازيل. الأمر لا علاقة له بقرار سياسيّ، أوضح الناطق الرسمي، بل بحالة خاصّة. ذلك أنّ السيّد زاتوبيك، عند عودته إلى تشيكوسلوفاكيا، أدلى بأقوال تسيء إلى البرازيل.

Twitter: @ketab_n

17

الوقت يمرّ، ومياه نهر فلتافا تجري تحت جسور براغ والألسنة تنسج إشاعات عن مصير إميل. هزائمه المتعاقبة، وإن لم تعلن أفوله الحتّ، بدا على الأقل أنّها تسجّل نهاية عظمته. في سباق «لومانيتيه» الثامن عشر، وصل التشيك والرّوس في نفس الطائرة دي سي 4 التابعة للخطوط الجوية الفرنسية ولكن إميل، هذه المرّة، لم يعد النجم الوحيد المنتظَر في مطار بورجيه. فقد نزل أيضاً من الطائرة الوسيم كوتس الذي كان هو وإميل يتخاطفان في المدّة الأخيرة أحسن وقت، وساهم معه في تفجير الرقم القياسيّ العالميّ للخمسة آلاف متر قبل أن يتخلّى إميل عن هذه المسافة.

كان إميل في هندامه المعتاد: معطف الغبردين القديم،

Twitter: @ketab_n

ولو أنّ لونه أخضر هذه المرّة، قلنسوة الصوف الأثيرة ذات الشُرّابة، خالي البال كعهده دوماً حينما يكون بعيداً عن مسالك العدْو، ولكنْ ألمْ يسمن قليلاً؟ بلى، ابتسم في كلّ اللغات كعادته، زدت كيلوغرامَين. ذلك أنّي انشغلت بأعمال كثيرة هذا العام، هه، وبالتالي وجدت سهولة أقلّ كي أتدرّب.

بالسهولة أو من دونها، فاز إميل دون صعوبة تذكر بالسباق الذي اعتادت الخلية المركزية تنظيمه. هذا الحفل الرياضيّ العالميّ تمّ بحضور سفراء اتّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وتشيكوسلوفاكيا، والمجرّ، وبولندة وبلدان شقيقة أخرى، ومن جهة أعضاء المجلس الفرنسي[1] جاك دوكلو ومارسيل كاشان وإتيان فاجون وأندري ستيل، كلّ ذلك تحت تيار هواء صقيعيّ وفيض من الخطب لا ينتهي، و«مارشات» عسكرية وأناشيد وطنية. طُلِبَ من إميل، والرفاق يهتفون باسمه، أن يلقي كلمة من المنصّة. أنا مسرور، صرّح قائلاً، ولكني آسف

(1) استعمل الكاتب عبارة Apparatchik التي تعني العضو الناشط في الحزب الشيوعي السوفييتي وسائر أحزاب المنظومة الشيوعية.

Twitter: @ketab_n

قليلاً أنّ شاباً لم يهزمني. الشبّان يحبّون الانتصار أكثر مني. أنا الآن في سنّ الثالثة والثلاثين، ولم تعد لديّ إرادةُ النصر نفسُها، ما عدت أعدو إلّا لمتعة العدْو. أشكركم. صفّقوا له. وقالوا يا للرّوح الرياضية الجيّدة، وحقّ الآلهة، يا للروح الجيّدة.

إلا أنّ الحياة في مضامير السّباق أيّدت كلامه. فإثر عودته إلى تشيكوسلوفاكيا، حيث شارك في بطولة الجيش للعدْو الريفيّ ببلدة بودايوفيتش، انهزم أمام المدعوّ أولسبرغر، وهو في الأصل أفضل مريديه. على أرضية ثقيلة، وفي برد جافّ، أذهل أولسبرغر الجميع بتقدّمه على إميل بخمسين متراً. وكانت تلك أوّل مرّة منذ عشر سنين ينهزم فيها في موطنه.

بعد بضعة أيّام، في زلين، ثأر إميل لنفسه، ولكن ذلك لم يَمحُ وقع الهزيمة. حاول أن يصنع الحدث فأعلن أنّه سيُقدِم على رقمه العالميّ الخاصّ في مسافة العشرة آلاف متر، الرقم الذي حقّقه في بروكسيل، فهو يريد تحطيمه في هوتسكا، داخل ملعبه المفضّل ستارا بوليسلاف. لم يكن ثمّة غير مضمار صغير يبلغ طوله 363,76 متراً ولكنّه ممتاز،

Twitter: @ketab_n

يتّقي الريح بغابة دائرية مجاورة، وقد أعاد خيرة التقنيّين المحليّين إصلاحه لغرض هذه المحاولة.

إلا أنّ الأسبوع كان حافلاً بالمشاغل. فقبل ثلاثة أيّام، اضطرّ بمناسبة العيد العاشر للتحرّر أن يشارك بوصفه ضابطاً في الاستعراض التذكاريّ الضّخم للجيش التشيكوسلوفاكي: وهذا، وإن بدا هيّناً في الظاهر، مُتعِب. زد على ذلك أنّ الجوّ في ستارا بوليسلاف كان يومَها قائظاً، وعصفَ الريحِ العنيفةِ، بعد أن تكشّف أنّ درع الأشجار القريبة غير كافٍ، كان يُثير في الملعب عجاجاً مضنياً. أخفق إميل بعد أن خذلته الريح والقيظ والأتربة، وكذلك أولسبرغر الذي عُهد إليه بأن يكون أرنب السباق[1] فإذا هو يغتنم الفرصة للتخلّي عنه. استسلم إميل في الكيلومتر الثامن، لاهثاً، محمرّ الوجه، مُجهَداً من الجوّ الثقيل المنذر بعاصفة، وأخفق في تحطيم رقمه، رغم أنّ أوقاته الوسيطة كانت تعادل بيسرٍ أوقاته في بروكسل. وكاد الجمهور المتأثّر ينسى التعبير عن تشجيعه.

(1) عدّاء يعتمد عليه الراغب في تحطيم الأرقام القياسية في المسافات الطويلة والمتوسّطة دون أن يكون طرفاً فيها، فيقود السباق بسرعة ليحمل الطامح على مجاراة نسقه قبل أن ينسحب من الحلبة.

Twitter: @ketab_n

لا يهمّ. ما العمل الآن؟ لنستعدّ منذ اللحظة لماراثون ملبورن، فيما كان الأستراليّون في الجهة الأخرى من الأرض قد بدؤوا يتزاحمون بالآلاف لشراء تذاكر ألعاب السنة القادمة. وفيما كانت الصحافة التشيكوسلوفاكية أيضاً تعلن عن منشّط معجز، أفلح في استحضاره في المختبر فريقٌ من الباحثين استناداً إلى نظام الحِمية الخاصّ بإميل، وسموّه «كوكتيل زاتوبيك». ولكن، بتفحّصه عن قرب، تبين أنّ نتائجه محدودة: فتركيبته المكوّنة من الخميرة والغلوكوز المستخلص من الثمار لا تحيل إلّا على خليط أوصى به غايلورد هاوسر، صاحب كتاب من أكثر الكتب مبيعاً عنوانه «عيشوا شبّاناً، عيشوا طويلاً».

وأيّاً كانت المواد السكرية والخمائر، فإنّ الوضع في هذه الظروف لا يتطوّر. في براغ، اعتذر إميل عن المشاركة في بطولات الجيش، ثمّ انهزم في مسابقة «ميموريال روسيكي». وفي بلغراد هُزم هزيمة شنيعة بسبب آلام في الأمعاء نجمت عن الإفراط في تناول الفواكه. في وارشو، أيّام مخيبة، إذ جرى إميل في مسابقة عشرة آلاف متر دون إبهار قبل أن يُهزَم بشكل قاطع من

Twitter: @ketab_n

الغد في مسافة خمسة آلاف متر.

ليس غرّاً، فهو يرى أنّ ساعة التقاعد أزفت. ولكنّه لا يأسى لذلك، بل يذكره وكأنّه يجد فيه تسلية. يواصل القول إنّه يُسَرُّ لرؤية الصغار يتجاوزونه ويوشكون على تحسين كلّ أرقامه. يأمل فقط أن يستمرّ حتّى ملبورن حيث يصرّ على الظهور بمظهر مشرّف. وبعدئذ، يقول، تنتهي الرحلات. سوف أعدو حول بيتي، وأهتمّ بتكوين هؤلاء الصغار الذين يحبّون المسافة الطويلة، هذا كلّ ما في الأمر. بل ها هو يشرع في التنقّل على متن دراجة نارية «إن إس يو كويكلي» أهديت له في كارلسروهه. والحقيقة أنّ دانا هي التي تقودها، أمّا هو فكان يكتفي باتّباعها راكضاً ويمزح حينما ينبغي الوقوف أمام مصوّري الصحف.

ومع ذلك، كان إميل أحياناً يستدرك أمره قليلاً، لأنّه لا يحبّ أن يُستثار. في برنو، مثلاً، نافسه في الخمسة آلاف متر بولنديٌّ يُدعى كرزيسكوفياك كان قد فاز عليه في وارشو منذ وقت قريب ويرى نفسه أهلاً لنصر جديد، ويريد أن يواصل. مضى كرزيسكوفياك هذا إلى المقدّمة وحرص على ألّا يتجاوزه إميل، وأراد، بشكل غير مشروع، أن

Twitter: @ketab_n

يتخلّص منه إذ حاول دفعه في منتصف السباق خارج المضمار. استبدّ بالوديع إميل غضب شديد، وهو يتّقي الدفعة الخسيسة وتصدّر الكوكبة عند المنعرج. ولكنّ كرزيسكوفياك عاد بقوّة، وتقدّم على إميل وفاتَه وبدا أنّه سيكسب السباق، غير أنّ إميل الذي لم تهدأ فورته، صرّ أسنانه، وتجاوز البولندي في سرعة فائقة حتّى خطّ الوصول لينهي السباق في أفضل وقت له خلال العام. فاز وسط عواصف التصفيق المعتادة، وعاد بطلَ المباراة، وملكَ المضمار. كلّا، أرأيت، لم ينته كلّ شيء بالنسبة إلى إميل. ولكنك ترى أيضاً أنّه عندما يفوز، يكتفي بزيادة السرعة تدريجيّاً، قدر جهده، في الكيلومترات الأخيرة. ولم تكن تلك طريقته في السابق.

أن يكسب بقدر أقلّ ليس أمراً جسيماً بالنسبة إلى أيّ شخص تنتابه لحظات علوّ ودنوّ. سوى أنّ إميل، وكان الأوّلَ دوماً، لم يعرف حتّى تلك اللّحظة انحسار قواه. والحال أنّ من الطبيعيّ مع الكبر أن يسترجع طاقته بشكل أقلّ، وأن تتعبه جهوده بشكل أسرع، وأن يقضي وقتاً أزيد في استعادة لياقته. هو يعرف ذلك ولكن لا يزال يقاومه

Twitter: @ketab_n

أحياناً، وكأنّه لا يريد أن يعلم، فيتعنّت في إعادة المراهنة. وببشاشته المعتادة، ومن غير أنّ يظهر عليه استسلام، أعرب عن نيّته تحدّي رقمه القياسيّ ببروكسل مرّة أخرى.

ما زالت الأمور لا تسير كما ينبغي. كانت تسير بقدر ضئيل ما جعل إميل بعد مباراة لندن-براغ، حيث ألفى نفسه الثالث، يفكّر في استخلاص ما يجب استخلاصه. أعلن أنّه، دون أن يهجر نهائيّاً ألعاب القوى، لن يشارك في اللقاءات العالمية بعد ألعاب ملبورن. من الأفضل أن ينسحب المرء وهو لا يزال في لياقته، أكّد أنّه اتّخذ هذا القرار منذ مدّة معيّنة. ثمّ هذا يكفي، أردف قائلاً، لقد دامت انتصاراتي أكثر ممّا يلزم.

ولكنّه، مع ذلك، رهيب. فها أنّ نيّة تحطيم رقم آخر من أرقامه العالمية، رقم الساعة، تخطر بباله، وسوف يقوم بالمحاولة في سيلاكوفيس وهي مدينة صغيرة قريبة من براغ. هكذا. نزوة انتابته على حين غرّة. وفي آخر لحظة عدلَ عنها، لأنّ المضمار لم يكن جاهزاً، ولكنّه، بدلاً منها، قرّر أن يعدو خمسة وعشرين كيلومتراً ليحاول استرجاع رقمه القياسيّ في هذه المسافة، الذي انتزعه منه الرّوسيّ

Twitter: @ketab_n

إيفانوف قبل شهر. وها أنّه يعدو ويستردّه. هذا الشخص الذي بدؤوا يقولون إنّه انتهى يمتلك من جديد كلّ الأرقام القياسيّة العالمية في المسافات الطويلة، من الستة أميال إلى الثلاثين كيلومتراً. لم نعد نفهم أيّ شيء.

ولم نعد ندري ماذا نفكّر. ارتاب بعضهم من كونه إنما أعدّ خطة، وأخفى لعبته كامل السنة، وأظهر علامات ضعف، وحتّى علامات انحدار، لكي يحقّق هذا الإنجاز غير المتوقّع في سيلاكوفيس. تخيّلوه مُهمِلاً عمداً حظوظَه في الخمسة آلاف والعشرة آلاف متر ليهيّئ نفسه لمسافات أطول، استعداداً لماراثون ملبورن. ذلك أنّه فعل الشيء نفسَه قبل أربع سنين، في سنة سبقت هي الأخرى الألعاب الأولمبية، متضائلاً أمام منافسيه لكي ينهب في النهاية كلّ ذهب العالم. معه هو، لا ندري. وتزداد درايتنا ضآلة إذا علمنا أنّ إميل، كإشارة وداع، نشر مذكّراته تحت عنوان «تمريني وسباقاتي» جاء فصله الأخير، «إميل في حياته الخاصّة»، بقلم دانا.

دانا التي سافرت رفقة إميل إلى الهند حيث أقاما شهرين، وقادا معاً تمارين لاعبي القوى المحلّيّين وألقيا

Twitter: @ketab_n

بعض المحاضرات- فالأمور فيما يبدو تغيّرت فعلاً في براغ، حيث صار يمكن مغادرة البلاد بسهولة ما فتئت تتزايد. وصلا إلى بومباي ثمّ تحوّلا إلى نيو دلهي حيث يقطع إميل، كلّ يوم، أربعين كيلومتراً، لأنّ المارثون ينبغي الاستعداد له. وبالأحرى هكذا يُعِدّه هو. بل إنّه، حال عودته، صرّح لجريدة «سفوبودني سلوفو» أنّه في ملبورن لن يشارك إلّا في هذا السباق. أمّا العشرة آلاف متر الأولمبية، التي يعتبر أنْ لا حظَّ له في الظهور فيها بمظهر مُجدٍ، فقد قضي أمرها.

ولكن من يدري، فقد يغير رأيه مرّة أخرى. فعلى غرار تقليد قريب من تقاليد التوديع في الميوزيك هول، يتفنّن العدّاؤون في مناوبة التصريحات الحاسمة، بين إعلانات تراجيدية واستئناف مرتجل للتمارين، بَلْهَ تحقيق إنجازات جديدة. وعلى أيّة حال، فإميل لا يزال يتدرّب في الغابة برغم البرد القارس الذي نزل على تشيكوسلوفاكيا.

ثمّ استؤنف الموسم بسباق أوّل في براغ: والغاية منه اختيار ثمانية عدّائين للمثول في باريس. كان الاختبار قاسياً، يمتدّ على مسافة تزيد على ثمانية كيلومترات وفي درجة 14 تحت الصّفر. اكتفى إميل في البداية باقتفاء النسق

Twitter: @ketab_n

الذي فرضه شخص يدعى كوداك، ثمّ انفصل عن الجمع في النهاية ليفوز متقدّماً بستّة عشر متراً. جيدّ، ما زال في الرصيد بقية. انتُخب بطبيعة الحال. وظلّ ينتظر في راحة بال سباق «لومانيتيه» التاسع عشر.

Twitter: @ketab_n

18

هكذا وصل ببسمته الوديعة، وقلنسوته ذات الشُّرّابة على رأسه الذي صار خالياً تماماً من الشعر، ونظرته المتعجّبة المنبهرة التي يحطّها دائماً على الأشياء، وعلى الناس، والتي لا تفارقه حتّى طلقةِ مسدّسِ معطي إشارةِ الانطلاق. ولكنْ وصل أيضاً كوتس، الذي ينتظر إميل كما ننتظر رجلاً ينبغي القضاء عليه، فرغم سنّه وبالرّغم من أنّ بعضهم لا يني يستعجل دفنه، لا يزال إميل بالنسبة إلى الجميع الفزّاعة الكبرى. وكوتس بشعره الأشقر، وخُصله المتمرّدة، ووجنتيه البارزتين، وكتفيه القويّتين، وتلك الهيئة التي توحي بأنّه نازل من المدمِّرة بوتمكين[1]، ها هو ينفصل

(1) إشارة إلى مدمّرة روسية شهدت على متنها ثورة عمّالية عام 1905، قابلها قيصر روسيا بقتل العمال الثائرين في سان بيترسبورغ. وقد خلّد هذه الواقعة عام 1925 المخرج السوفييتي سيرغي إيزنشتاين في فيلم رائع بعنوان «المدمّرة بوتمكين» كحلقة مؤسّسة لثورة البلاشفة.

Twitter: @ketab_n

عن المجموعة منذ طلقة الرصاص دون أن يسمح لأيّ منهم باللّحاق به حتّى خطّ الوصول الذي لم يبلغه إميل، وقد أفلتت الأمور من يديه، إلّا ثالثاً. حسناً، قال الوديع إميل دون أن يجعل منها مأساة، يجب الإقرار بالواقع، أنا تقدّمت في العمر فيما كان هؤلاء الفتية يتطوّرون، حسناً. ساعتي ولّت، هذا آخر موسم لي. بقي أن أتدرّب أكثر لإنهائه بشكل مشرّف. وليس للنهاية المشرّفة غير اسم واحد: بعد ثمانية أشهر، ألعاب ملبورن.

وعاد إلى تمارينه. أوّلاً في المجرّ، في مخيّم تاتا، ثمّ في ستارا بوريسلاف، المضمار الذي يسهر عليه شجر معمّر باسق وسَنْدَرٌ شامخ حطّم إميل في ظلّه أغلب أرقامه القياسية. كان يمعن في التدرّب فيه حتّى أنّه أهمل مظهره، وصار يُرى ملفوفاً في سترة رياضية بالية ذات لون لا يبين، بلحية أربعة أيّام وقلنسوة تنحدر حتّى العينين وكأنّه مشرّد. وانتهى أيضاً إلى إيذاء نفسه، إذ أصيب بفتق في ثِنية الفخذ يستوجب عملية جراحية.

المستشفى، صمت. صمت طويل بدأت في جوفه، كالعادة، تنتشر كلّ أنواع الإشاعات، لا يلبث أن يعقبها

Twitter: @ketab_n

تكذيب، يليه تكذيبُ ذلك التكذيب: إميل أسلم أمره، كلّا، أبداً ما دام سيعدو خلال يوم الجيش، ثمّ كلّا، لن يحضر يوم الجيش، إميل مريض ثمّ هو في صحّة جيّدة[1]، هو ممنوع من الألعاب بسبب أقوال تحريضية ولكن قطعاً لا، سيذهب إلى الألعاب، ثمّ لن يذهب إلى الألعاب إلّا كمتفرّج، لن يذهب أبداً لأنّه عدَل عن ذلك. إميل توقّف. ستُجرى عليه عملية جراحية أخرى. استأنف التمارين، ويتمرّن كما لم يتمرّن من قبل. لم يستطع استعادة لياقته البدنية، لم يعد قادراً على التقدّم، أسلم أمره، انتهى، سوف يعود، حتماً سيعود. في الماضي، في المستقبل، في المضارع ولكن في الماضي بشكل خاصّ، من النادر أن تحدّث عنه الناس بهذا الفيض منذ أن قيل، وقال هو عن نفسه، إنّه يشهد انحداره.

عاد. تحت برْد قاطع، وبَرَد ثاقب، عاد يعدو عشرة آلاف متر أكثر من مشرّفة في براتيسلافا، وبعدها، في

(1) يستعمل الكاتب هنا تعبيراً يرجع عهده إلى القرن الثاني عشر الميلاديّ: il se porte comme un charme وكلمة charme مأخوذة من اللاتينية carmen وتعني الرقية والتعزيم والسّحر. فكأنّ من يتمتّع بصحّة جيدة استفاد من مفعولها.

Twitter: @ketab_n

تورغو، خمسة وعشرين كيلومتراً في حال نضارة مطلقة فما لبث الجميع أن غيّروا رأيهم. بكلّ تأكيد سيذهب إلى ملبورن ما دام قد استعاد عافيته ولياقته، أدرجوه في الماراثون مثلما أدرجوه في العشرة آلاف متر، وتكهّنوا له بميداليّة ذهبية خامسة.

حسناً، سنذهب إلى ملبورن، ولكنّ إميل لم يكن شديد التفاؤل، ولا يوقن كثيراً في كلّ هذا. كعهده قبل كلّ مقابلة كبرى، يقول في نفسه إنّه متعَب. ثمّ هو لا يحسّ بتفاعل الجمهور الأسترالي. يخشى ألّا يكون هذا الجمهور متعوّداً على مباريات ألعاب القوى، قليلَ الإحساس بجمال بساطتها، ميّالاً بالعكس إلى أنماط الرياضة الأقلّ تجريديّة كسباق الخيل أو الدرّاجات النّاريّة. من جهة أخرى، تخاصم مع مُنتخبيه الذين رفضوا في نهاية الأمر إدراجه في العشرة آلاف متر، ولم يسمحوا له إلّا بالمشاركة في الماراثون.

باختصار لم يكن في حال نفسية جيدة عند وصوله للمرّة الثانية إلى الجزء الجنوبيّ من الكرة الأرضية. عندما بلغ سكنه في القرية الأولمبية، لم يهرول نحو غرفة الاستحمام

Twitter: @ketab_n

ليتفقّد مرّة أخرى قانون كوريوليس. سوف يقوم بذلك عرَضاً في الأيّام التالية، ولكن بكيفية مكفهرّة ودون أن يكون مقتنعاً، بل بدا له أنّ المسألة لم تعد تستقيم حقّاً. كلّ ما يُمتعه قليلاً في دائرة فضوله، آلة تصويره الجديدة.

والحال أنّ الطرف الآخر من الأرض، في الأيّام الأولى من شهر أكتوبر، لم يكن رديئاً لأنّ الفصل ربيع، حدائق مزهرة، بحر هادئ، سماء صافية، ليالٍ معتدلة. ولكن ما لبث الجوّ أن تغيّر، أيّام مطيرة، هبوب قارس، والجميع يرتجف، حتّى البجع الأسود في خليج بورت فيليب حيث لاذت بضفافه. لم تكن المعنويات حاضرة، لا سيّما أنّ الجميع يتّفقون على اعتبار هذه الألعاب تافهة مقارنةً بألعاب هلسنكي: تنظيم غير محْكَم، غذاء رديء، تجهيزات ناقصة، مسار غير منتظم. صنابير الماء مصابة بالفُواق، التدفئة مزاجية، الأسرّة الصّارّة قصيرة كالمسبح الذي لا يلبّي المعايير إذ تنقصه ثمانية مليمترات كي يصبح أولمبيّاً بالفعل. ثمّ إذا لم تهبّ ريح الصحراء الثقيلة الحارقة، التي لا تناسب كثيراً عدّائي المسافات الطويلة، فإنّ ريح الجنوب هي التي بدأت تتدفّق، قارسة، مُدوّمة،

Twitter: @ketab_n

قادمة من القطب المتجمّد الجنوبيّ القريب، وغير مناسبة لهم هي أيضاً.

ولكن، يوم الماراثون، لا نصيب الحقيقةَ إنْ قلنا إنّ الشمس عادت. كانت تولّد جحيماً لاهباً، فرناً ذا عنف فادح، تثقل كواهل العدّائين كالكتلة. وبما أنّ من واجب المرء أن يحتمي، فقد استعاض إميل عن قلنسوته السميكة بعَمرة من الكتّان الخفيف ولكنّها غير كافية. يُجرى السباق في طريق ضاحية قاحل مُترب، حيث لا وجود لظلّ، وحيث الإسفلت، المفتَّت في بعض المواضع، يغلي تحت أحذيتهم. ذلك الطريق، المسمّى دَنديونونغ رود، تحفّ به بيوت ذات ستائر بندقيّة[1] تزدحم أمامها حشودٌ ضخمة غير منظّمة من رجال احمرّت وجوههم من البيرة، وفتيات في فساتين خفيفة، وأمازونيات في سراويل رعاة البقر، ولاعبات كرة مضرب هجرن ملعبهنّ والمضارب تحت أذرعهنّ، ولاعبو كريكيت هجروا ميدانهم والمدقّ على أكتافهم.

بعد طلقة المسدّس، ومن حسن الحظّ أنّ عياراً طائشاً

(1) نسبة إلى مدينة البندقية بإيطاليا Venezia.

Twitter: @ketab_n

لم يتسبّب في حادث، نظراً للسياق، بدأ السباق. انطلق الجميع، وطوال العشرين كيلومتراً الأولى، ظلّ إميل في المرتبة العاشرة حذراً. في تلك البداية، لم تكن الأمور سيّئة بالنسبة إليه: يتصابى، يحيّي الجمهور برفع طاقيّته مراراً، ويجد الوقت كي يقف أمام مصوّرين هواة. في الصّعدة الكأداء بدأت الأمور تتعقّد، الصّعدة الطويلة التي تسبق الراية الحمراء عند المفترق حيث يأخذ الطريق وجهة ملبورن. ولكن بما أنّ الأمور تعقّدت خصوصاً بالنسبة إلى أغلب منافسيه الذين بدؤوا يتمايلون، ولا يتقدّمون إلّا بشكل متعرّج، ويصابون بالإعياء ويخرجون من السباق الواحد تلو الآخر، فقد استغلّ إميل الفرصة ليتقدّم إلى المرتبة الخامسة خلال العشرة كيلومترات التالية وفي أعقابها هو الذي انهدّ عزمه.

فشلت الماكنة أوّلاً في التفاصيل، ركبة تفقد تماسكها من جهة اليسار، شوكة عصبيّة في الكتف، بداية تشنّج عضليّ في باطن الركبة اليمنى، ثمّ ما لبثت الآلام والأعطال أن تضافرت، وتواصلت في شكل شبكة إلى أن اختلّ جسمُه كلُّه. حتّى وإن حرص رغم ذلك على العدْو بصفة منتظمة،

Twitter: @ketab_n

فإنّه ما انفكّ يتراجع ولا يبدي غير خطوة مهشّمة، غير مستقيمة ولا متناسقة، ولم يبق منه غير رجل آليّ ممتقع مضطرب، غارت عيناه وحاقت بهما زرقة ما فتِئت تزداد عمقاً. ألقى طاقيّته، التي صارت، تحت الشمس الرهيبة، ثقيلة كالخوذة.

في الكيلومتر الثلاثين، توقّف مخطوفَ الأنفاس محطَّماً عند إحدى الطاولات المنصوبة على طول المسار، المحمّلة بِدلاء ماء وإسفنج وما يصلح للشرب. نضح وجهه بكثافة، شرب نصف كوب من الماء، نظر إلى الطريق مرتاباً، كبح ما تبقى له من اندفاع للمواصلة، أفرغ الكوب ثمّ استأنف العدْو. استأنف ولم يعد غير دمية مفكّكة، خطوة مكسّرة، جسد متصدّع، نظر شارد، وكأنّه معزول عن جهازه العصبيّ. واصل على هذا النحو حتّى الملعب، ولكن، منهزماً، سادساً عند الخطّ المستقيم النّهائيّ، خرّ على ركبتيه وترك رأسه يهوي على العشب الأصفر وبقي كذلك دقائق طويلة كان خلالها يبكي ويتقيّأ، وانتهى، انتهى كلّ شيء.

Twitter: @ketab_n

19

ليس كلّ شيء.

ليس كلّ شيء، ففي السنوات العشر التي ستعقب تلك اللحظة، حيث سجّل نظرُ إميل بصورة مكبّرة ذلك العشب الأصفر الضّحل الذي غثت نفسُه فوقه، ما زالت أشياء كثيرة في طريقها إلى الحدوث.

أوّلاً، إثر عودته من أستراليا، عُيّن عقيداً. حتّى ذلك الحين، كان يرتقي في الرتبة بعد انتصار ولكن يبدو هذه المرّة أنّ ذلك كان اعترافاً بخدماته، وتتويجاً لنهاية مسيرته. فهو لم يعرب فقط عن تخلّيه عن المسابقات، وإنّما أيضاً، ولأوّل مرّة منذ سنوات طويلة، لم يعد يحتلّ المرتبة الأولى في ترتيب أبطال بلاده: لم يعد سوى رقم خمسة خلف رامية قرص ورامي أثقال. رقّوه إذن ثمّ أعادوا تأهيله: عيّنوه

Twitter: @ketab_n

مديراً للرياضة في وزارة الدفاع، مكلّفاً بالشؤون التربوية.

ولكن يبدو أنّه لم يتخلّ عن رغبته في معاودة العدْو على الدوام. فبعد ملبورن بستّة أشهر، طلب منه بعض أصدقائه القدامى، وهم في الواقع أفضل المتخصّصين الوطنيّين في الخمسة آلاف متر، أن يسدي لهم خدمة. بكلّ سرور، قال لهم إميل. ماذا يمكن أن أقدّم لكم. في الحقيقة، قال الأصدقاء، نريد أن تعدو معنا، كما في الزمن السابق. ولكنّي تخلّيت، قال لهم إميل، أنتم تعرفون ذلك. أبداً، شرح الأصدقاء بطول أناة، ليست المسألة كذلك. الأمر لا علاقة له بمسابقة، بكلّ تأكيد. طبعاً هم يعرفون أنّ إميل صرّح أنّه خارج اللعبة نهائيّاً. كلّا، هم يطلبون منه فقط أن يقود السباق، أن يضمن لهم نسقاً مناسباً لكي يساعدهم في التعبير عن قدراتهم بشكل أفضل. حسناً، قال إميل وهو لا يطلب شيئاً أفضل من أن يمدّ لهم يد المساعدة. حسناً، ما دام الأمر كذلك. وفي اليوم الموعود، انطلق معهم بأناة، تحت ريح ممطرة. ولكن عندما التفت بعد خمس دورات من الخطّ النّهائيّ، لم يرَ خلفه سوى أشباحٍ لاهثةٍ لا تبين، تزمجر في الناحية الأخرى من المضمار. لم يفعل ذلك عمداً،

Twitter: @ketab_n

فقط لم يستطع أن يمنع نفسه عنه.

لمّا لاحظ إميل ذلك، وكان يلقى التشجيع، عاد إلى السباقات باحتشام، بحظوظ متفاوتة. خلال مسابقة عشرة آلاف متر في إطار الألعاب الرياضية الثالثة بموسكو، بمضمار ملعب لينين ذي الآجر المصبوب بدقّة، عدا بأسرع ما يمكن مع مجهول وأنهى السباق في المرتبة السادسة خلفه. هذا مؤثّر، ومثير للسخرية. ولكن بعدها بثلاثة أشهر في أوديسّا، فاز في المسافة نفسها كعهده في أيّام مجده. وهذا مؤثّر، ومعقّد.

لا بل هو بالغ التعقيد: فعندما دُعي إميل إلى إسبانيا ليشارك في سباق العدْو الريفي بسان سيباستيان قبِلَ، على أن تكون هي المساهمة الأخيرة. سافر على متن الطائرة، في رحلة تتوقّف في مطار أورلي. عندما نزل من التوبوليف، أبصر جماعة من الصحافيّين والمراسلين متجمهرين عند باب المطار، بعد مراقبة الجمارك. إميل ألفَ هذه الوضعية، رقّ قلبه لذلك، من اللّطف أن يكون هذا الحشد هنا، شيء ممتع أن ترى أنّك لم تُنسَ. ولكن ما إن اجتاز الجمارك حتّى لم يبق في المكان سوى متدرّب متأخّر كان يلفّ فيلمه دون

Twitter: @ketab_n

أن يُرعيه نظرة، أمّا الآخرون فقد غادروا المكان بعد أن صوّروا من جميع الزوايا ومن كلّ الاستدارات إليزابيث تايلور القادمة من لندن في الوقت نفسه.

بمشاعر مختلطة إذن تقدّم إميل لخوض اختبار سان سيباستيان، سباقٍ ذي موانع على أرض متباينة. وانطلق السباق مرّة أخرى: اندفع العدّاؤون سريعاً عند طلقة المسدّس والريح في ظهورهم. من كان منهم في المقدّمة ما لبثوا أن تعطّلوا في الأراضي المحروثة وفي التلّ الواقع قبل مضمار الخيل. هناك اختار إميل أن يشنّ الهجوم بدوره، فزاد من سرعته ولم يقدر غير ستّة عدّائين على مجاراته والالتصاق به مقدار دبّوس شعر. ولمّا ألفى نفسه في مواجهة الريح، قصّر من مدى خطوته ليقاوم دوّامة العجاج ثمّ، وهو يكشّر فوق العادة، وقد غيّر الجهد ملامح وجهه كشأنه في أيّامه الخوالي، اندفع نحو نبت الأحراج ودخل ميدان الخيل ليفوز متقدّماً بعشرين متراً، ويتلقّى التحيّة في آلاف المناديل الملوَّح بها. هتفوا باسم الرياضيّ العتيد، وكرّموه، وبجّلوه، وأهدوه قبّعة مكسيكية سومبريرو وكلب أَوْكار باسكي سمّته دانا

Twitter: @ketab_n

بيدرو، واحتفظا به لمدّة طويلة.

كان ذلك آخر انتصار له، والخير في أن يقف عند هذا الحدّ. أن يتوقّف فعلاً، مثلما وعد. ذلك أنّ مَقامه لم يعد هو نفسه: منذ سنتين، لم يعد إميل يذهب إلى سباق «لومانيتيه» إلّا بوصفه مدرِّباً. وإذا كان يواصل العدْو يوميّاً فلأجله هو، كي يحافظ على لياقته، أي بدرجة أقلّ. وبما أنّه يتدرّب أقلّ، صار يجد متّسعاً من الوقت للاهتمام بما يجري في بلاده.

وما يجري لا يخلو من أهمّيّة. فخلال السنوات العشر التي تلت ملبورن، تعاقب رؤساء الحزب والجمهورية بعد وفاة غوتفالد دون أن يطرأ تحسّن يذُكر، وإن تغيّرت اليافطة: من ديمقراطية شعبية تحوّلت تشيكوسلوفاكيا إلى جمهورية اشتراكية، لا نرى وجه الخلاف ولكن لا علينا. لا جديد، خوف كالمعتاد، وبرد كالمعتاد، كلّ ذلك ينساب وسط جوّ من الاكفهرار والإحباط، وطوابير الانتظار والرسائل المجهولة المرسِل.

وها أنّ أميناً عامّاً يُدعى ألكسندر دوبشيك[1] يظهر

(1) Alexander Dubček (1921–1992) الأمين الأول للحزب الشيوعي =

Twitter: @ketab_n

فجأة ويروم فيما يبدو أن يغيّر الجوّ قليلاً. إجمالاً، دوبشيك يريد لافتة جديدة: ديمقراطية اشتراكية هذه المرّة، وهذا لا يعني الناس في شيء لأوّل وهلة، ولكنّه صرّح أيضاً أنّ البلاد ينبغي أن تنفتح أوروبيّاً، وهو ما تقطّب بسببه، على بعد ألفي كيلومتر شمال شرق براغ، الحاجب الأول للأخت الكبرى في الاشتراكية.

ولكنّ دوبشيك لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ اتّخذ قرارات لم يجرؤ أحد على تخيّلها. إلغاء الرقابة. التسامح الدينيّ. ردّ الاعتبار للمسؤولين القدامى الذين أدينوا في المحاكمات الكبرى ببراغ. إطلاق سراح كتّاب سُجنوا بسبب آرائهم. حقّ الجميع في السفر إلى الخارج. فرض الشرعية والقانون. باختصار بدا أنّ الجليد يذوب. الناس يرون أشياء لم يكونوا قَطّ يتصوّرونها، مواطنون بسطاء يأخذون الكلمة ليتوجّهوا إلى الوزراء والمسؤولين- فيما كانت الأخت الكبرى في موسكو تقطّب حاجبيها باطّراد.

= التشيكوسلوفاكي (1968– 1969) مفجّر حركة «ربيع براغ» الإصلاحية. بعد الثورة المخملية، انتخب رئيساً للبرلمان الفيدرالي التشيكي والسلافي (1989–1992)، ثمّ رئيساً للحزب الاشتراكي السلوفاكي إثر انفصال بلده الأصلي سلوفاكيا عن التشيك عام 1991 حتّى وفاته.

Twitter: @ketab_n

ومنذ ذلك الحين، بدأت الأمور تتحرّك بشكل مقبول. وبزوال الخوف، اتّخذت الحياة مجرى آخر، فصار الناس يتحدّثون فيما بينهم، ويتكلّمون بتلقائية في الشارع، في البيوت، في العمل، هناك حيث كانوا فيما مضى يلزمون الصمت ولا يُصغون لأيٍّ كان. صاروا يجتمعون، يتناقشون، يتبادلون، يعلّقون، ويحسّون أنّهم في حال صحيّة أفضل بكثير، بل إنّ الطقس نفسه بدا أقلَّ برداً. سوف يتنفّسون بحرية، دون تلك الرهبة القديمة الحاضرة في كلّ آن، سوف يكون بإمكانهم تصوّر تشيكوسلوفاكيا جديدة، اشتراكية وليبرالية في الوقت نفسه. شيوعية، حسناً ما دمنا لا نستطيع أن نفعل خلاف ذلك، ولكن سنحاول أن نجد نمطَ عيش شيوعيّاً جديداً، وخصوصاً أن نعيش عيشة أفضل.

وباستثناء بعض الستالينيّين الذي يحنّون إلى الماضي، حاز كلّ ذلك إعجابَ الجميع، إميل أيضاً رأى فيه أمراً جيّداً. هو الذي حَظي بالسفر، ولمس في الخارج حريّةَ التعبيرِ والتنقّلِ المجهولةَ في بلده، لا يمكن إلّا أن يساند بحرصٍ تطورات تحرير الأنشطة والأفكار تلك.

Twitter: @ketab_n

عندما يقارن ما يقترحه دوبشيك مع ما قدّمه نوفوتني[1] والآخرون، لا يمكن إلّا أن يدعم دوبشيك. وكان لإعلانه الانضمامَ إلى هذا الأخير صدًى واسعٌ لأن إميل، برغم انسحابه من الملاعب، يظلّ الرجل الأكثر شعبية في بلاده. كان الجميع في سرور لا يني يزداد.

دام ذلك أقلّ من سنة، فيما كان صبر الأخت الكبرى، في الجانب الآخر، ينفد، إلى أن استحال نفادُ الصبر غضباً، والغضبُ غيظاً. دام ذلك حتّى ليلةٍ من ليالي أغسطس في براغ، أي بعد اثنتي عشرة سنة من ملبورن.

(1) أنطونين نوفوتني Antonín Novotny (1904–1975) رئيس تشيكوسلوفاكيا الشيوعية من 1957 إلى 1968.

Twitter: @ketab_n

20

دخل السوفييت تشيكوسلوفاكيا. جاؤوها في طائرات وعلى دبّابات هجومية. في البداية عبر رحلة لشركة أيروفلوت الجوية حيث نزلت خفيةً مجموعة من المظلّيين المدنيّين تنتمي إلى فرقة سبيتسناز[1] للسيطرة على مطار براغ. عقبتها طائرات مهورة بالنجم الأحمر، ما بين مطاردات «ميغ»، و«أنتونوف أن-12»[2] طائرات عملاقة محمّلة بمعدّات ثقيلة وبفرقة الحرس 103 المنقولة جوّاً. هذه الفرقة تحرّكت باتّجاه وسط براغ، وحاصرت في طريقها قصر الرئاسة. تلتها سبعة آلاف وحدة من المدرّعات الآلية لقوّات حلف وارشو، كانت متمركزة

(1) Spetsnaz فرقة وحدات أمن وشرطة خاصّة في العهد السوفييتي وفي روسيا الحالية.

(2) Antonov An-12.

Twitter: @ketab_n

على حدود البلاد، والتقت في وسط عاصمتها لاحتلالها بواسطة خمسمائة ألف جنديّ.

كانت الدبّابات من نوع «تي 54» و«تي «55 و«تي 62»، وكان السبيتسناز[1] مجهّزين بمسدّسات ماكاروف وبنادق هجوم من طراز إي. كي.-47 [2] ومشتقّاتها ذات الأخمص القابل للثني، والرّشاشات الخفيفة أر بي كي- 74 [3]، وبنادق القنص إس في دي دراغونوف[4] وقاذفات القنابل اليدوية إي جي إس 17 [5]. قد نعتبر أنّ هذه الترسانة تناسب حرباً أو غزواً، ولكن كلاّ. فالأمر لا يتعلّق بعملية ضمّ بسيط يتمّ بلطف على غرار ما حدث قبل ثلاثين عاماً، كلاّ. فقط إنّ السوفييت قدِموا ليرتّبوا شؤون نظام يعتبرون أنّهم أسياده، ولينظروا إلى التطوّرات الأخيرة كانحراف

---

(1) باسم مخترعه المهندس نيكولاي ماكاروف Nicolaï Makarov (1914–1988).

(2) AK–47 المشهورة باسم مخترعها ميخائيل كلاشنيكوف Mikhaïl Kalachnikov (1919–2013).

(3) RPK–74.

(4) SVD Dragunov وتنسب هي أيضاً إلى صانعها يفغيني دراغونوف Ievgueni Dragounov (1920–1991).

(5) AGS–17.

Twitter: @ketab_n

مؤسف ينبغي إعادته بسرعة إلى حالته الطبيعية. جاؤوا إذن مع جيوش خمس دول من الحلف واستقرّوا، ذلك كلّ ما في الأمر.

عشر ساعات كانت كافية لكي تسقط المدينة في أيدي المظلّيين، وبعد أن تحقّق الربط مع القوّات البرية، دخلت الدبّابات الروسية براغ بقوّة. وبعدها، تمّ الاحتلال المادّي للبلاد في أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

عندما دخل هذا العالم المصغّر براغ، لم يكن الاستقبال بارداً، بل كان معادياً ومقاوماً. كان الناس يتجمّعون في جوف اللّيل بميدان فينسيسلاس ليقفوا في مواجهة الـ «تي 55» المتمركزة هنا وهناك، والمحرّكات تدور. وعندما يحاول سائقوها مغادرتها، يُستقبَلون بصياح استنكار هائل. ثمّ تحطّمت بضع رصاصات، أطلقت من سطوح المتحف الوطني، على درع الدبّابة. فهرع جنودها إلى حجرات الدبّابات يلوذون بها، وما لبثت الواقيات أن أُغلقت والأبراج الدوّارة أن دارت حول نفسها، وسرعان ما بدأت المدرّعات جميعاً تطلق النار. انفجرت واجهات المتحف الزجاجيّة، وانهارت قطع من جبهات المبنى.

Twitter: @ketab_n

وفيما كانت أصداء رشقات، لرشّاشات ومسدّسات رشّاشة، قد بدأت تفرقع في أنحاء كثيرة من المدينة، هجم المتظاهرون على مبنى الإذاعة التي كانت لا تزال تواصل البثّ، والتي كانت الدبّابات أيضاً تتقدّم نحوها. أطلقت النار في البداية في الهواء ثمّ تنازلت نحو الأسفل بازدياد، فقلبت وحطّمت وسحقت السيّارات الرابضة هناك، لتفسح مجالاً لجنود المشاة المكلّفين باحتلال المبنى. ثمّ استُوْلِيَ على الإذاعة في الثامنة صباحاً، وقُطعت برامجُ الاستوديوهاتِ المعتادةُ. وقُضي الأمر.

خلال الأيّام التالية، في براغ، أبدى الأهالي مقاومة سلبيّة. يحاولون أوّلاً أن يتناقشوا مع الجنود ولكن، بما أنّ ذلك لا يأتي بنتيجة تذكر، يبادرون باتّباع بعض التصرّفات. إذا صادف أن طلب جنود سوفييت تاهوا في المدينة دليلاً إلى طريقهم، فمن الطبيعيّ أن نريهم دائماً الاتّجاه المعاكس. كذلك يحرصون على تغيير لافتات وجهات المواقع بانتظام لبثّ الاضطراب في أذهان الدخلاء. وفي أثناء ليالي الاحتلال الأولى تلك، يواصلون التجمّع في ميدان فينسيسلاس.

Twitter: @ketab_n

كان إميل قد التحق بالمتظاهرين. سوف يبلغ السادسة والأربعين الشهرَ القادم. كان لا يزال وسيماً برغم صلَعِه، منفتحاً كالعادة، هادئاً على الدّوام حتّى وإن لم يبتسم في تلك الليلة على غير عهدِه بنفسه. ولم يرَ الناس في ذلك المساء أسنانه الكبيرة.

ما كاد يبلغ مكان التظاهر حتّى عرفه الناس. قل أيّ شيء، إميل، هيّا، كانوا يحضّونه، لا يمكن أن تبقى دون ردّ فعل. كان إميل محرَجاً في البداية. ليس لأنّه لا يملك شيئاً يقوله، ولكنّه إن كان تعلّم كيف يتحدّث إلى الصحافيّين، فهو لا يملك تجربة مع الجماهير. لا يهمّ، تناول الكلمة: تكلّم البطل القوميّ وهو يستقوي على صوته الرفيع، فندّد بغزو قوّات الحلف وأدانه. تحدّث من وجهة نظره كلاعب قوى، وبما أنّ الألعاب الأولمبية المقبلة كانت ستقع في غضون بضعة أسابيع بمكسيكو، فقد ارتجل خطبة مقتضبة دعا فيها الجيش إلى هدنة أولمبية. لم يكن كلامه واضحاً، فدقّق فكرته داعياً، بمناسبة تلك الألعاب، إلى مقاطعة اتّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

لم تتأخّر العواقب التي تجرّها مثل تلك التصريحات. فما

Twitter: @ketab_n

كاد الغد يهلّ حتّى طُرد من وظيفته بالوزارة. وفي الأيّام التالية تمّ إقصاؤه من الحزب، وطرده من الجيش، ومنْعه من الإقامة في براغ. لم يكن الوحيد: في نفس الوقت، أقصي ثلاثمائة ألف عضو من الحزب، وأُبعِد ثلاثمائة ألف آخرون غير شيوعيّين من الحياة العامة، وفُصل ثلاثمائة ألف أيضاً من وظائفهم أو أُسقِطوا إلى مراتب دنيا.

ها أنّ إميل إذن عاطل عن العمل. إذا كان لا يُسمَح له طبعاً بالسفر، فبإمكانه أن يحاول مغادرة البلاد، بعضهم حاول وأفلح، أمّا هو فلا يريد أن يفكّر حتّى مجرّد التفكير في الهجرة. ثمّ إنّه لن يجد الوقت كي يفكّر فيها، إذ أُرسِلَ، بعد بضعة أيّام، بصفته عاملاً يدويّاً إلى مناجم اليورانيوم بجاشيموف، في شمال غرب البلاد، قرب الحدود الألمانية.

ياشيموف منجم يتمّ استغلاله في الهواء الطلق حيث يُجرَش اليورانيوم، دون وجود أيّ منظومة رشّ أو تهوية لتقليص الإشعاع أو الحدّ من كثافة الأغبرة والرّادون[1]، وهو غاز مشعّ للغاية يتفشّى من تجهيزات التوضيب، وتلال الرّدم، وخزّانات النفايات السائلة. فتنشر الريح في كلّ مكان جزيئات إشعاعية، فيما يتسرّب الماء إلى المياه

(1) Radon (Rn) هو أثقل أنواع الغازات المعروفة.

Twitter: @ketab_n

الجوفية والجداول، ليلوّث الحيوان والنبات والبشر.

هناك سوف يشغّلونه في مراكز مختلفة، ما قد يذكّره بتعييناته في باتا عدا أنّ المزح هنا بدرجة أقلّ بكثير. فالمعدن، بعد جرش خبائثه، يتمّ تركيزه عن طريق الأكسدة، والقلع، والترسيب، وهي عمليات تعوّد عليها إميل، حيث يتنقّل تباعاً بين ورَش الغسل والتجفيف والتغليف. يدفع ويجذب أيضاً، إذا اقتضى الأمر، عربات المعدن الصغيرة. دام ذلك ستّة أعوام كان إميل خلالها، لا ندري بأيّ حيلة، يزور متنكّراً دانا التي ظلّت في الإقامة الجبرية ببراغ.

بعد تلك الأعوام الستّة، قرّرت الأخت الكبرى في الاشتراكية ومأموروها في السلطة البراغية الذين جعلوا من ألكسندر دوبشيك بستانيّاً، استدعاء إميل إلى العاصمة بنيّة ترقيته لجعله جامع فضلات. بدا أنّها فكرة صائبة لإذلاله، ولكن سرعان ما اتّضح أنّها ليست كذلك. أوّلاً، عندما كان يجوب شوارع المدينة خلف عربة جمع القمامة وبيده مكنسة، لا يلبث الناس أن يعرفوه، ويهتفوا من نوافذهم باسمِه. بعدها، لمّا كان رفاقه في هذا

Twitter: @ketab_n

العمل يرفضون أن يجمع النفايات بنفسه، صار يكتفي بالهرولة خلف الشاحنة، تحت هتاف التشجيع كما في الزمن السابق. عند مروره كلّ صباح، ينزل سكّان الحيّ الذي يُعيَّن فيه فريقه إلى الرصيف ليصفّقوا له ويصبّوا نفاياتهم بأنفسهم في شاحنة جمع الفضلات. ولم يحدث قطّ أن حَظيَ عامل تنظيف في العالم بمثل تلك الحفاوة. من وجهة نظر المأمورين في السلطة، كانت تلك عمليةً فاشلة.

سُحب إذن من تلك المهمّة على عجل، وجُرّب في اثنتين أو ثلاث أخرى ظلّ مشكل شعبيّته أثناء ممارسته لها قائماً. وبعد يأس، أرسلوه إلى الريف، حيث الأهالي أقلّ ممّا في المدينة، على أمل أن يكون التنبّه لوجوده أدنى، فكُلّف بأعمال حفر وردم. وبات عمله يتمثّل في حفر الأرض لغرس أعمدة تلغراف، فهو رسميّاً اختصاصيّ في علم طبقات الأرض. عامان مرّا على هذا النحو، قبل أن يُدعى للمثول أمام لجنة ما عادت تناديه بالرفيق. مدّوا له ورقة جديدة، واقترحوا عليه بصرامة أن يوقّع عليها.

في تلك الوثيقة، يعترف كما ينبغي بكلّ أخطاء الماضي. بأنّه أخطأ في مساندة القوى المضادّة للثورة والتحريفيّين

Twitter: @ketab_n

البورجوازيّين. وأنّه ما كان عليه أن يكفل تلك القذارة الرجعية لميثاق الألفَي كلمة[1]. اعترف فيها بأنّه مسرور جدّاً بالوضع الراهن بعامّة، وراضٍ تماماً عن حياته الشخصية بخاصّة. ويؤكّد أنّه، برغم الإشاعات، لم يكن قَطّ عامل تنظيف أو حفّار تربة. وأنّه لم يُضطهَد قَطّ، ولم يتدنّ في الرتبة قَطّ، وأنّه ليس في حاجة لجراية معاشه التقاعديّ بصفته عقيداً في جيش الاحتياط. وأنّه يتقاضى راتباً مجزياً في أعمال الحفر الجيولوجية، وهي وظيفة يكتشف فيها عالَماً جديداً ومُمتعاً. وقّع. وقّع على نقدِه الذاتيّ، وأنّى له أن يفعل غير ذلك لكي يعيش في سلام. وقّع، وما هي إلّا أيّام حتّى صُفح عنه. انتهى المَطْهَر[2]. عُهد له، في براغ، بوظيفة في قبوٍ بمركز أخبار الرياضة.

حسناً، قال إميل الطيّب. أمين محفوظات، لعلّي لم أكن أستحقّ شيئاً أفضل.

---

(1) بيان «ربيع براغ» الذي حرّره الكاتب لودفيك فاكوليك Ludvik Vaculik وصدر في 27 يونيو 1968 في المجلّة الأدبية Literárni noviny وثلاث صحف يومية، متوجّهاً إلى كافة المكوّنات المجتمعية، ووقّع عليه مئات الآلاف من شتى فئات المجتمع، في طليعتهم علماء أكاديمية العلوم وأعلام الفن والأدب والثقافة.

(2) Purgatoire: في المخيال المسيحيّ، مكان تُطهّرُ فيه النفس بعذاب له أجلٌ محدود.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

يُعتبر جان إشنوز من أكبر مجدّدي الكتابة الروائيّة في فرنسا في العقود الأخيرة. ولد عام 1947 في مدينة أورانج الفرنسيّة، لأب طبيب نفسيّ وأمّ رسّامة. ولدى إنهائه الدراسة الثانويّة، بدأ بدراسة الكيمياء، ثمّ انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثمّ عقد العزم على ممارسة الكتابة الأدبيّة. نشر حتّى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسّينما عدداً من السيناريوهات. فاز في 1983 بجائزة مديسيس عن روايته «شيروكي»، وفي 1999 بجائزة غونكور عن روايته «أنا راحل». ينشر له مشروع «كلمة» ترجمة لثلاثة كتب صاغ فيها بلغة روائية سيَرَ ثلاثة من أعلام العصر الحديث وهم: المؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ موريس راڤيل «راڤيل»، والعدّاء التشيكيّ إميل زاتوبيك «عدْو»، والمخترع ومهندس الكهرباء الصربيّ-الأمريكيّ نيكولا تسْلا «بروق».

نبذة عن المترجم:

أبو بكر العيادي كاتب ومترجم تونسيّ مهاجر، ولد عام 1949 في جندوبة، ويقيم في فرنسا منذ 1988. نشر ستّ روايات وسبع مجموعات قصصية، ووضع كتباً بالفرنسية مستوحاة من التراث القصصيّ العربيّ والحكايات الشعبية التونسية، ونقل إلى العربية أعمالاً من الأدب العالمي منها: «أمراض الأدب القاتلة»، مقالات مختارة لمجموعة من الكتّاب الفرنسيّين، عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1990، ورواية «ذهول ورعدة» لأميلي نوتومب، القاهرة 2012، ورواية «مذكرات شيهم» لألان مابانكو، القاهرة 2015، عن الهيئة المصرية للكتاب. يعمل محرّراً بجريدة العرب، ومستشار تحرير بمجلّة «الجديد» اللندنية.

عَدْو

ثمّة عدّاؤون يبدون كأنّهم يطيرون، وآخرون كأنّهم يرقصون، وآخرون كأنّهم يستعرضون، وبعضهم يتقدّمون وكأنّهم جالسون على أرجلهم. ثمّة من يتبدّى على هيئتهم أنّهم فقط يجْرون بأقصى سرعة نحو المكان الذي دُعوا إليه. ولا شيء من ذلك كلّه لدى إميل.

إميل كأنّه يحفر أو ينحفر، مثل مهتاج في رعدة أو حفّار تربة. بعيداً عن القواعد الأكاديمية وأيّ عناية بالرشاقة، كان يتقدّم بكيفية ثقيلة، غير مترابطة، مشوّهة، بشكل متقطّع. لم يكن يخفي عنف جهده الذي يُقرأ على وجهه المتقبّض، الجامد، المقطّب، الملويّ دائماً بتكشيرة تضني من يراها (...) عندما يجري يبدو غائباً، في مكانٍ آخر بشكل رهيب، مركّزاً ذهنه وكأنّه ليس هنا، والحال أنّه هنا أكثر ممّن عداه...

السعر 45 درهماً

9 789948 139621

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة